روايات





خيال الظل

L'OMBRE CHINOISE

٥٠ مليما

روايات عالمية

العدد رقم ٤١٣

خيال الظل

تأليف : جورج سيمينون
ترجمة : حماده ابراهيم

خيال الظل

كانت الساعة العاشرة مساء • وكانت أبواب الحديقة الصغيرة مغلقة وسط ميدان « الفوج » الخالى ، وثمة آثار تلمع خطتها العربات فوق الأسفلت ، وغناء النافورات الدائم ، وأشجار بلاأوراق ، ومقاطع أسطح متشابهة كلها ، تتكرر على منوال واحد على صفحة السماء •

وتحت أعمدة النور ، التى تشكل اطارا عجيبا حول الميدان ، قدر ضئيل من الضوء . وثلاثة حوانيت أو اربعة . ولمح ميجريه ، مفتش المباحث أسرة تتناول طعامها داخل حانوت ـ من تلك الحوانيت ـ تكدست فيه أكاليل الموتى المرصعة باللؤلؤ •

كان يحاول قراءة الأرقام الموجودة أعلى الأبواب ، ولكنه ما كاد يتعدى حانوت الأكاليل حتى خرج عليه من وسط الظلمة انسان ضئيل :

ـ أنت الذى اتصلت بك تليفونيا منذ قليل ؟

لابد وأنها ظلت تترقب فترة طويلة • وعلى الرغم من برد نوفمبر ، فانها لم ترتد معطفا فوق مئزرها • كان أنفها أحمر ، وعيناها قلقتين •

وعلى بعد لا يبلغ المائة متر ، عند منعطف شارع بثار ، يقوم أحد رجال الشرطة بالحراسة فى زيه الرسمى •

ـ الم تخطريه ؟

قالها ميجريه متمتما :

ـ كلا ! . بسبب مدام سان مارك ، التى توشك على الوضع •• أنظر ! ها هى ذى عربة الطبيب ، الذى استدعى على عجل ••

وكانت هناك ثلاث عربات عند حافة طوار الشارع ، مصابيحها الأمامية مضاءة ، وكذلك نورها الخلفى الأحمر • أما السماء ، حيث كانت بعض السحب تمر على أغوار يغمرها ضوء القمر ، فقد كان يلوح عليها شحوب غامض • فكان الناظر يظن أن تباشير الجليد بسبيلها الى السقوط •

كانت الحارسة قابعة تحت قبو العمارة ، الذى يضيئه مصباح قوته خمس وعشرون شمعة ، دكن لونه من أثر التراب •

ـ سأشرح لك •• هنا ، الفناء •• يجب على المرء أن يجتازه لكى يصل الى أى مكان فى البيت ، ما عدا الحانوتين •• وهـــذا مسكنى ، الى اليسار •• لاتلق بالا •• لم يكن لدى وقت لكى أضع الأولاد فى السرير ••

كانا طفلين ، ولدا وبنتا ، داخل مطبخ غير منظم • لكن الحارسة لم تدخل • كانت تشير الى مبنى شاهق ، متناسق يقوم فى آخر الفناء الرحيب •

ـ هناك •• ستفهم حالا ••

كان ميجريه يتأمل بفضول هذه المرأة الضئيلة الغريبة التى كانت يداها المضطربتان تكشفان عن آثار الحمى •

ـ مطلوب مفتش مباحث فى التليفون !

هكذا قالوا له على طوار المصوغات منذ فترة وجيزة •

لقد سمع صوتا خافتا • فكرر ثلاث مرات أو أربع مرات قائلا :

ـ ارفعى صوتك ! •• أنا لا أسمعك ! ••

ـ لا أستطيع •• اننى أتحدث من حانوت الدخان ••

وكانت رسالة متقطعة •

ـ يجب الحضور فورا الى رقم « ٦١ » ميدان الفوج •• أجل ! •• اعتقد أنها جريمة •• ولكن ليت هذا لايظل خافيا أكثر من ذلك !

وعندئذ راحت الحارسة تشير الى نوافذ الطابق الأول الكبيرة • وخلف الستائر كانت هناك أشباح تروح وتغدو •

ـ هناك ••

ـ الجريمة ؟

- كلا ! مدام سان مارك التى تلد •• أول ولادة لها •• انها ليست متينة البنيان •• هل تدرك ؟ ••

وكان الفناء أشد ظلاما من ميدان الفوج • كان يضيئه مصباح واحـــد مثبت فى الحائط • ويتكهن المرء بوجود سلم خلف باب زجاجى ، ثم نوافذ مضيئة هنا وهناك •

- ولكن الجريمة ؟

- اليك ! فى الســـاعة السادسة ، انصرف العمال من عند كوشيه ••

- لحظة • ماذا تقصدين ب « من عند كوشيه » ؟

- من المبانى التى بالداخل •• معمل تحضر به الأمصال ••• لابد أنك تعرف •• أمصال الطبيب رڤيير •

- هذه النافذة المضيئة ؟

- انتظر ! نحن فى الثلاثين من الشهر •• وعلى ذلك ، فقد كان السيد كوشيه موجودا •• فمن عادته أن يبقى بمفرده بعـد غلق المكاتب •• لقد رأيته خـــلال الزجاج ، جالسا فى كرسيه الموسد •• أنظر ••

نافذة من الزجاج الخشن ، وشبح غريب ، كأنه لانسان منكفىء فوق مكتبه •

- أهذا هو ؟

- أجل • فى حوالى الشـــامنة ، عندما أفرغت وعاء القمامة ، القيت نظـرة •• كان يكتب ••• اننـا نرى بوضوح اليـد التى تمسك ريشة أو قلما ••

- والجريمة فى أية ساعة •••

- لحظة ! فصعدت لكى أستفسر عن صحة مدام سان مارك •• ونظرت ثانية وعنـد نزولى .. كان كما هو الآن ، حتى اننى اعتقدت بأنه كان قد نام ••••

- وبدأ الجزع على ميجريه •

- وبعد ذلك بربع ساعة •••

- أجل ، كان لايزال فى نفس المكان ! انتقلى الى المهم •••

ـ هذا كل مافى الأمر ••• اردت أن أتأكد ••• طرقت باب المكتب ••• لم يجب أحد ودخلت ••• كان ميتا •• والدم منتشر في كل مكان •••

ـ لماذا لم تخبرى قسم الشرطة ؟ انه على بعد خطوتين • بشارع بثار •••

ـ ويحضر الجميع فى الزى العسكرى ! • ويقلبون البيت ! • لقد قلت لك أن مدام سان مارك •••

كان ميجريه يضع يديه فى جيبيه ، وغليونه بين أسنانه • وراح ينظر الى نوافذ الطابق الأول، وانتابه شعور بأن اللحظة تقترب، فقد زاد الاضطراب • وسمع صوت باب يفتح ، وخطوات أقدام على السلم • وظهر فى الفناء خيال جانبى طويل عريض ، فراحت الحارسة نتمتم قائلة ، وهى على ذراع مفتش المباحث :

ـ السيد سان مارك •• انه سفير قديم ••

أما الرجل الذى لم تتضح معالم وجهه ، فقد توقف ، ثم عاد الى المسير ، ثم توقف ثانية ، وهو لا يكف عن مراقبة نوافذ شقته •

ـ لابد انهم ارسلوه الى الخارج •• هكذا ، حالا •• تعال •• حسن ! • هاهما والحاكى مرة اخرى ! • وفوق أسرة سان مارك بالضبط ! كانت هناك فى الطابق الثانى ، نافذة صغيرة ، أردا اضاءة • كانت مغلقة وثمة موسيقى حاكى يخمنها المرء أكثر مما يسمعها •

أما الحارسة ، وكانت متأثرة ، محمرة العينين ، مضطربة اليدين ، فقد سارت متجهة الى أقصى الفناء ، وكانت تشير الى سلم صغير وباب منفرج •

ـ ستراه الى اليسار ••• اننى أفضل ألا أدخل •

* * *

مكتب عادى • أثاث فاتح اللون ، وورق جدران «سادة» •

ورجل فى الأربعين من عمره ، جالس فى كرسى ذى مسندين • ورأسه فوق الأوراق المتناثرة أمامه • لقد تلقى طلقة فى صميم صدره •

واصغى ميجريه السمع : كانت الحارسة لا تزال فى انتظاره فى الخارج ، والسيد سان مارك لا يكف عن ذرع الفناء . ومن آن لآخر ، تمرق فى الميدان عربة تزيد ضوضاؤها من اطباق الصمت الذى كان يتبعها .

لم يمس مفتش المباحث شيئا . لقد تأكد فقط أن السلاح غير موجود فى المكتب ، وبقى ثلاث دقائق أو أربعا ينظر حواليه وهو يسحب أنفاسا صغيرة من غليونه ، ثم خرج بادى الاصرار .

ـ ماذا ؟

كانت الحارسة لاتزال موجودة . كانت تتكلم بصوت خفيض .

ـ لاشيء ! لقد مات !.

ـ لقد أرسلوا منذ برهة فى استدعاء السيد سان مارك الى فوق ...

كان ثمة هرج ومرج فى الشقة . أبواب تصطك . شخص ما يجرى .

فتمتم ميجريه وهو يحك قفاه :

ـ انها بالغة الوهن !

ـ عجبا ! ولكن الأمر لا يتعلق بذلك . هل لديك فكرة عن الشخص الذى يمكن أن يكون قد دخل المكتب ؟

ـ أنا ؟ .. كيف ؟

ـ آسف ! من مسكنك ، لابد وأنك ترين المســـتاجرين وهم يمرون .

ـ كنت أستطيع ! لو كان المالك ينزلنى فى مسكن مناسب ولا يبالى بالاضاءة ... اننى لا أكاد اسمع بعض الخطوات ، والمح بعض الأشباح ، فى المساء ... وهناك خطوات أتعرف عليها ...

ـ ألم تلاحظى شيئا غير عادى منذ الساعة السادسة ؟

ـ أبدا ! لقد أتى جميع المستأجرين تقريبا وافرغوا أوعيـــة قاذوراتهم ... هنا ، الى يمين مسكنى ... هل ترى صناديق

القمامة الثلاثة ؟••• ليس من حقهم أن يأتوا لافراغها قبل السابعة مساء •••

ـ ولم يدخل أحد من القبو ؟

ـ كيف تريدنى أن أعرف ؟••• يبدو أنك لا تعرف العمارة ••• هناك ثمانية وعشرون مستأجرا ••• بالاضافة الى شركة كوشيه ، حيث الذهاب والاياب الدائمان •

ويسمع وقع أقدام فى الدهليز ، ويلج الى الفناء رجل يغطى رأسه بقبعة ، وينعطف الى اليسار ، ويقترب من أوعية القمامة ، ويتناول صندوقا فارغا • وعلى الرغم من الظلام ، فلابد أنه لمح ميجريه والحارسة ، لأنه مكث ثابتا لحظة ، وأخيرا نطق قائلا :

ـ لاشىء لى ؟

ـ لاشىء ، ياسيدى مارتان •••

واستعلم ميجريه قائلا :

ـ من يكون ؟

ـ السيد مارتان ، موظف فى مكتب التسجيل ، يسكن مع زوجته فى الطابق الثانى •

ـ وأية مصادفة جعلت صندوق قمامته ؟ •••

ـ كلهم تقريبا يفعلون هذا عندما يريدون الخروج••• ينزلونه عند انصرافهم ، ويستعيدونه عند رجوعهم ••• هل سمعت ؟

ـ ماذا ؟

ـ يخيل لى ••• كصرخة مولود جديد ••• فقط لو أنهما ، فوق ، يوقفان هذا الحاكى الملعون !••• لاحظ أنهما يعلمان تمام العلم ان مدام سان مارك تضع •••

وهرولت ناحية السلم الذى كان ينزله شخص ما •

ـ ماذا يادكتور ؟••• ولد ؟•••

ـ بنت •

ومضى الطبيب • وسمع وهو يهيىء العربة للمسير ، وينطلق •

وراح المنزل يواصل حياته اليومية . الفناء المظلم . القبو ومصباحه الكئيب . النوافذ المضيئة وموسيقى الحاكى الغامضة .

كان الميت لا يزال فى مكتبه ، وحيدا ، ورأسه فوق بعض الرسائل المتناثرة .

وعلى حين فجأة تدوى صرخة ، فى الطابق الثانى . صرخة حادة كأنها نداء يائس . لكن الحارسة لا تفزع لذلك ، وتنهدت وهى تدفع باب مسكنها .

ـ حسنا ! المجنونة مرة أخرى ...

وصرخت بدورها ، لأن أحد ولديها كان قد هشم طبقا . وعلى الضوء ، رأى ميجريه وجها نحيلا ، مرهقا ، وجسدا لا يبين عن سن .

وسألت الحارسة قائلة :

ـ متى ستبدأ جميع الاجراءات ؟

وفى مواجهة المنزل ، كان حانوت الدخان لايزال مفتوحا ،وبعد دقائق أغلق ميجريه على نفسه التليفون ، وبصوت خافت ، هو أيضا ، راح يعطى بعض التعليمات .

ـ نعم ... النيابة ... ٦١ ... تقريبا عند منحنى شارع التورين ...

ولتخطر ادارة تحقيق الشخصية ... الو !... أجل ، سأظل فى مكان الحادث ...

وخطا بضع خطوات على الطوار ، ثم ولج بطريقة آلية تحت القبو واستقر أخيرا وسط الفناء ، عابس الوجه ، مضموم الكتفين من أثر البرد .

وفى النوافذ ، شرعت الأنوار تخبو . وكان الميت لا يفتأ يرسم قطوعا من خيال الظل فوق الزجاج الخشن .

وتوقفت عربة أجرة . لم تكن عربة النيابة بعد . وراحت امرأة شابة تجتاز الفناء بخطى حثيثة ، تاركة وراءها أثرا معطرا ، ثم دفعت باب المكتب .

- ٢ -

رجل انيق

سلسلة كاملة من المناورات الزائفة ادت الى موقف مضحك .
فما ان اكتشفت المرأة الجثة ، حتى عادت من فورها . وفى اطار
الباب ، لمحت شبح ميجريه الطويل . تجمع آلى للصور : القتيل
من ناحية ، والقاتل من ناحية اخرى .

وهى كذلك جاحظة العينين ، وجسمها منقبض على بعضه
البعض ، اذا بها تفتح فاها لتستغيث ، فتسقط حقيبة يدها .

ولم يكن لدى ميجريه وقت للجدال . لقد جذبها من ذراعها
واطبق بيده على فمها .

ــ صه !... انت مخطئة !... شرطة ...

وخلال الفترة التى كانت تتحقق فيها من معنى هذه الكلمات،
كانت تجتهد لتخليص نفسها ، فقد كانت امرأة عصبية ، وحاولت
أن تعض ، وكالت من الخلف ضربات بكعب حذائها .

وطقطق حرير : انها حمالة الثوب .

واخيرا هدأ كل شيء . فراح ميجريه يكرر :

ــ ولا صوت ! انا من الشرطة .. لا فائدة من اثارة البيت ..

كان ما يميز تلك الجريمة ، هو ذلك الصمت الغريب فى مثل
هذه الحال ، ذلك الهدوء ، واولئك المستأجرون الثمانية والعشرون
الذين كانوا يواصلون حياتهم العادية حول الجثة .

واصلحت المرأة من زينتها .

ـ هل كنت عشيقته ؟

ورمقت ميجريه بنظرة حرون ، وهي تبحث عن دبوس لتشبك حمالتها .

ـ هل كان بينك وبينه موعد هذا المساء ؟

ـ في الثامنة ، في « السيليكت » كان المفروض أن نتناول العشاء معا ، ونذهب الى المسرح ..

ـ ولما لم يأت في الثامنة ، ألم تتصلي به تليفونيا ؟

ـ بلى ! وقيل لي ان الجهاز مرفوع .

كان كلاهما ينظر اليه في نفس الوقت ، فوق المكتب . لابد وأن الرجل قلبه عندما سقط الى الامام .

وترامى الى السمع وقع أقدام في الفناء ، حيث كانت أضعف الأصوات في ذلك المساء تتضخم وكانها تخرج من تحت ناقوس . وراحت الحارسة تنادي وهي على عتبة الباب ، حتى لا ترى الجثة .

ـ سيدي مفتش المباحث .. انهم رجال القسم ..

لم تكن تحبهم . لقد وصلوا أربعة أو خمسة ، دون أن يحاولوا المرور خفية .

وكان احدهم ينتهي من سرد قصة مسلية . وسأل آخر عندما بلغ المكتب :

ـ اين الجثة ؟

ولما كان مفتش مباحث القسم غائبا ، فقد ناب عنه مساعده، فزاد هذا من حرية ميجريه في مواصلة ادارة العمليات .

ـ دع رجالك في الخارج . انني في انتظار النيابة . من الأفضل الا يرتاب المستأجرون في شيء ..

وبينما كان المساعد يتجول في المكتب ، عاد والتفت الى المراة من جديد .

ـ ما اسمك ؟

ـ نين .. نين موانار ، ولكنهم يدعونني دائما نين ..

ـ هل تعرفين كوشيه منذ فترة طويلة ؟
ـ منذ ستة شهور تقريبا ..

لم تكن هناك حاجة لتوجيه اسئلة كثيرة اليها . كان يكفى تأملها .. كانت فتاة على قدر غير قليل من الجمال لاتزال فى مطلع حياتها .. زينتها من محل محترم . غير ان طريقتها فى التزين ، ومسك الحقيبة والقفاز ، والنظر الى الناس بروح عدائية كانت تكشف كلها عن « كواليس » أحد الملاهى .

ـ راقصة ؟
ـ كنت أعمل فى ملهى « الطاحونة الزرقاء » .
ـ والآن ؟
ـ معه ..

لم تتح لها فرصة للبكاء . لقد مضى كل شىء بسرعة خارقة ولم تتكون لديها بعد فكرة واضحة عن الحقيقة .

ـ هل كان يعيش معك ؟
ـ ليس هذا بالضبط ، مادام متزوجا .. ولكن ..
ـ عنوانك ؟
ـ فندق بيجال .. شارع بيجال ..

ولاحظ المساعد قائلا :

ـ على كل ، لا يمكن الادعاء بأن هناك سرقة !
ـ لماذا ؟
ـ انظر ! ان الخزانة وراءه ! وهى ليست موصدة بالمفتاح ، ولكن ظهر القتيل يحول دون فتح بابها !

اما نين ، التى اخرجت من حقيبتها منديلا صغيرا ، فقد راحت تنشق وتسد منخريها .

وفى اللحظة التالية ، تغير الجو . فرامل عربات فى الخارج .. وقع أقدام واصوات فى الفناء . ثم مصافحات بالأيدى ، واسئلة ومحاورات صاخبة . كانت النيابة قد وصلت . وراح الطبيب

الشرعى بفحص الجثة . وشرع المصورون فى اعداد أجهزتهم . أما بالنسبة لميجريه ، فقد كانت لحظة بفيضة عليه قضاؤها . فبعد الجمل القليلة اللازمة ، بلغ الفناء ، ويداه فى جيبيه ، واشعل غليونه واصطدم فى الظلام ، بشخص ما . انها الحارسة ، التى لم تستطع أن تزعن بترك أناس مجهولين يجولون فى البيت دون أن تشغل بالهابأعمالهم وحركاتهم .

فسألها ميجريه ، متطلفا :

ـ ما اسمك ؟

ـ مدام بورسييه .. هل سيبقى هؤلاء السادة طويلا ؟ ... انظر ! لم يعد هناك ضوء فى حجرة مدام سان مارك .. لابد وأنها نامت ، المسكينة ..

ولمح مفتش المباحث ، وهو يفحص البيت ، نورا آخر ، ستارا فى لون القشدة ، ومن ورائه امراة . كانت ضئيلة نحيلة . مثل الحارسة . ولم يكن صوتها ليبلغ الآذان . غير انه لم يكن من الصّعب التخمين بأنها كانت فريسة غضب شديد . كانت تارة تبقى ثابتة فى صرامة ، تحدق النظر فى شخص ما لا يظهر للعيان .

وفجأة كانت تتكلم ، وتكثر من اداء الحركات ، وتتقدم بضع خطوات الى الأمام .

ـ من تكون ؟

ـ مدام مارتان .. لقد رايت زوجها وهو عائد منذ قليل .. انه كما تعلم ، الذى كان يحمل وهو صاعد صندوق القمامة .. موظف مكتب التسجيل ..

ـ هل من عادتهما العراك ؟

ـ انهما لا يتعاركان .. هى فقط التى تصرخ .. أما هو فلا يجرؤ حتى على فتح فمه .

ومن وقت لآخر ، كان ميجريه يلقى نظرة خلال المكتب الذى يضم نحو عشرة اشخاص يتحركون . ودعا قاضى التحقيق الحارسة ، من عند العتبة .

ـ من يقوم بادارة المعمل ، بعد السيد كوشيه ؟
ـ الدكتور فيليب . انه لا يسكن بعيدا : فى جزيرة سان ـ لوى ..
ـ هل لديه تليفون ؟
ـ بالتأكيد ..
وسمع شخص يتحدث فى الجهاز . وفى الطابق العلوى ، لم يعد قطوع مدام مارتان يظهر على الستار . ومن جهة أخرى ، راح شخص غريب يهبط السلم ، ويخترق الفناء فى خطى مسترقة ، ثم يبلغ الشارع . واستطاع ميجريه أن يتعرف على قبعة السيد مارتان ومعطفه المطاط .

كان الوقت منتصف الليل . فأطفأت صاحبتا الحاكى نورهما ولم يعد هناك ما يضىء بخلاف المكاتب ، الا حجرة استقبال عائلة سان مارك فى الطابق الأول ، حيث راح السفير القديم يتجاذب الحديث ، بصوت خفيض ، مع المولدة ، فى جو تسوده رائحة مستشفى لاطلاوة له .

***

وعلى الرغم من تقدم الوقت ، فقد كان السيد فيليب ، لدى وصوله ، حسن الهندام ، ذا لحية بنية مصقولة بعناية ، وكانت يداه مغلفتين فى قفاز رمادى خشن الداخل . كان فى الأربعين من عمره تقريبا ، كان نموذجا كاملا للرجل المثقف الجاد المهذب .

ولا شك أن الخبر ادهشه ، بل اقلقه . غير أن انفعاله كان يشوبه شىء اشبه بالتحفظ ، وراح يتنهد قائلا :
ـ مع الحياة التى كان يعيشها ..
ـ اية حياة ؟
ـ لن اذكر السيد كوشيه بسوء . وفضلا عن ذلك ، فليس هناك سوء يمكن ان يذكر به . لقد كان سيد زمنه ..

ـ لحظة : هل كان السيد كوشيه يقوم بادارة اعماله بنفسه ؟
ـ لا من قريب ، ولا من بعيد . هو الذى فتح لها الأسواق . ولكن ما أن بدأت تروج ، حتى ترك لى جميع المسئوليات . لدرجة أننى كنت أظل خمسة عشر يوما دون أن أراه . خذ مثلا ! اليوم

بالذات ، انتظرته حتى الخامسة . فهذه ليلة تسليم المرتبات . كان عليه أن يحضر لي الأموال التي يلزم دفعها غدا . حوالى ثلاثمـــائة الف فرنك . وفى الخامسة ، اضطررت للانصراف وتركت لهتقريرا على المكتب .

ووجد التقرير مكتوبا، على الآلة الكاتبة ، تحت يد القتيل . تقرير عادى : اقتراح بزيادة عامل وفصل أحد الموزعين ،ومشروع للاعلان فى بلدان أمريكا اللاتينية ، الخ . .

فسأل ميجريه :

ــ وعلى هذا فالثلاثمائة الف فرنك ينبغى أن تكون هنا ؟

ــ فى الخزانة . والدليل على ذلك ، أن السيد كوشيه فتحها. فنحن الاثنان ، هو وأنا ، نملك المفتاح والسر . .

ولكن . لكى تفتح الخزانة ، كان لابد من رفع الجثة فانتظروا حتى تنتهى مهمة المصورين . وكتب الطبيب الشرعى تقريره . لقد أصيب السيد كوشيه برصاصة فى صدره ، ولما كان الشريان الأورطى قد قطع ، كانت الميتة صاعقة . ويمكن تقدير المســافة بين القــاتل والضحية بثلاثة أمتار . وأخيرا ، كانت الرصاصة من العيارالأكثر شيوعا ٦ م ٣٥٠

وراح السيد فيليب يدلى للقاضى ببعض الايضاحات .

ــ اننا لا نملك ، فى ميدان الفوج ، غير المعامل التى تقع خلف هذا المكتب .

وفتح أحد الأبواب ، فظهرت حجرة كبيرة سقفها من زجاج ، صفت فيها آلاف من أنابيب الاختبار . وخلف باب آخر ، أعتقــد ميجريه أنه سمع ضوضاء .

ــ ماذا هنالك ؟

ــ موضوعات الاختبار .. والى اليمين ، مكاتب الكتبة والموظفين ولنا فى « بانتان » محلات أخرى ، نصدر منها الجـــزء الأكبر من انتاجنا ، فأنت تعلم طبعا أن أمصال الدكتور رفيير معروفة فىالعالم كله .

ــ اهو الذى فتح لها الأسواق ؟

ـ أجل! لم يكن الدكتور ريفيير ليملك المال. فقام كوشيه بتمويل أبحاثه . ومنذ عشر سنوات ، أسس معملا لم تكن له أهمية هـذا المعمل الذى تراه ..

ـ ولا يزال الدكتور رفيير فى العمل ؟

ـ لقد لقى مصرعه منذ خمس سنوات ، فى حادث سيارة .

واخيرا رفعت جثة كوشيه ، وما ان فتح باب الخزانة ، حتى سمعت صيحات التعجب . فكل الأموال التى كانت تحويها قد اختفت . ولم يبق غير بعض الأوراق الخاصة بالعمل .

وراح السيد فيليب يشرح الأمر :

ـ ليس فقط الثلاثمائة الف فرنك التى أحضرها السيد كوشيه بالتأكيد ، بل كذلك ستون الفا من الفرنكات أودعت عصر اليوم، وضعتها أنا بنفسى فى هـذه الخزانة بعد أن أحطتها بحلقة من المطاط !

لم يوجد شيء فى حافظة القتيل : أو بالأصح ، وجدت تذكرتان مرقمتان لمسرح المادلين ، اثارت رؤيتهما نحيب « نين »

ـ انهما لنا .. كان من المفروض أن نذهب الى المسرح سويا.

كانت هذه هى النهاية . فقد زادت الفوضى ، وراح المصورون يطوون اوراق اجهزتهم الكثيرة . وراح الطبيب الشرعى يغسل يديه من صنبور اكتشفه فى صندوق مثبت فى حائط ، وأبدى كاتب قاضى التحقيق تعبه .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذا الاضطراب ، فقد استطاع ميجريه أن يختلى بالقتيل على نحو ما ، لمدة لحظات .

كان رجلا قويا ، أميل الى القصر ، ممتلىء الجسم ، وكما هو حال نين ، لم يكن يخلو من نوع من الابتذال ، وعلى الرغم من ملابس بديعة التفصيل ، واظافره المدرمة ، وقميصه الحريرى المفصل.

اما شعره الأشقر فقد اصبح نادرا . ويبدو أن عينيه كانتا زرقاوين ولهما تعبير صبيانى بعض الشيء .

وتنهد خلفه صوت يقول :

ـ رجل انيق !

كان هذا صوت « نين » التى كانت تبكى حنانا وتستشهد بميجريه ، لعدم اجترائها التحدث الى رجال النيابة الرسميين .

ـ أقسم لك انه كان نموذجا للرجل الانيق .. كان بمجرد أن يشعر أن هناك شيئا مايمكن ان يدخل السرور على قلبى .. ليس أنا فقط !.. أى شخص !.. لم أر فى حياتى انسانا يهب حلوانا مثله .. لدرجة اننى كنت الومه .. كنت أقول له ان الناس يعتبرونه غرا ..

عندئذ كان يجيبنى

ـ وما اهمية ذلك ؟..

وسأل مفتش المباحث جادا :

ـ هل كان مرحا ؟

ـ اميل الى المرح .. ولكنه فى الواقع لم يكن مرحا .. هل تفهم؟ هذاامر يصعب شرحه .. كان يشعر بحاجةالى الحركة ،والى القيام بعمل ما .. اذا مكث هادئا ، تجهم أو انتابه القلق ..

ـ وزوجته ؟

ـ رأيتها مرة ، من بعيد .. لا استطيع أن اذكرها بسوء ..

ـ اين يسكن كوشيه ؟

ـ شارع هوسمان .. ولكن فى أغلب الأحيان ، كان يذهب الى مولان ، حيث يملك فيللا هناك ..

وادار ميجريه راسه بسرعة ، فرأى الحارسة لاتجرؤ على الدخول وتومىء له باشارات وقد بدا وجهها اكثر بؤسا .

ـ أرأيت ! انه نازل ..

ـ من ؟

ـ السيد سان ـ مارك .. لابد وأنه سمع الضوضاء كلها .. هاهو ذا .. يوم كهذا ! تصور ..

وبدا السفير القديم فى جبة البيت ، كان يتردد فى التقدم لقد تبين مداهمة النيابة . ومن جهة أخرى ، رأى الجثة فوق النقالة ، تمر بالقرب منه ، وسأل ميجريه قائلا :

ـ ماهذا ؟

ـ رجل مقتول . . كوشيه ، صاحب الامصال . .
وشعر مفتش المباحث بأن محدثه قد خطرت له فكرة على حين فجاة ، كما لو كان قد تذكر شيئا .
ـ هل تعرفه ؟
ـ كلا . . اقصد انني سمعت عنه . .
ـ وبعد ؟.
ـ لاشيء ! لا اعرف شيئا . . متى . . الـ
ـ الجريمة لابد وانها وقعت بين الثامنة والتاسعة . .
وتنهد السيد سان مارك ، وسوى شعره المفضض ، واوما برأسه لميجريه ، ثم اتجه نحو السلم الذى يؤدى الى شقته .
كانت الحارسة قد انتحت جانبا . ثم انضمت الى شخص ما كان يروح ويجيء مائلا الى الأمام ، تحت القبو . وعندما عادت الى مفتش المباحث ، سألها قائلا :
ـ من هذا ؟.
ـ السيد مارتان . . انه يبحث عن فردة « قفاز ضاعت منه . . ينبغى ان اقول لك انه لا يخرج ابدا بدون قفاز ، حتى ولو كان ذلك لشراء سجائر من مسافة خمسين مترا من هنا .
أما السيد مارتان فكان يدور حول صناديق القمامة ، مشعلا بعض الجذوات ، واخيرا سلم بالصعود الى مسكنه من جديد .
وفى الفناء ، تصافحت ايدى . وانصرف رجال النيابة . وتبادل قاضى التحقيق حديثا قصيرا مع ميجريه .
ـ سأتركك تتصرف . . وطبعا ستحيطنى علما . .
أما السيد فيليب ، وهو دقيق لا يزال ، كصورة على الطراز الحديث ، فقد انحنى امام مفتش المباحث قائلا :
ـ الم تعد فى حاجة الى ؟
ـ سأراك غدا . . اظن انك ستكون فى مكتبك ؟. .
ـ كالعادة . . فى التاسعة تماما .
وفجاة حلت لحظة مؤثرة ، مع انها لم تتسم بأدنى حدث . كان

الفناء لا يزال غارقا فى الظلام . مصباح واحد ، ثم القبو بمصباحه المعفر .

وفى الخارج ، تتحرك العربات ، ثم تسعى فوق الاسفلت ، تكشف لحظة أشجار ميدان الفوج بمصابيحها الشديدة .

لم يعد القتيل موجودا ، كان المكتب يبدو وكأنه قد نهب نهبا ، لم يفكر أحد فى اطفاء الأنوار وكان المعمل مضيئا كأن هناك عملا ليليا شديدا .

وهكذا تجمع ، وسط الفناء ، ثلاثة أشخاص يتباينون فيما بينهم ، لم يكن أحدهم يعرف الآخرين قبل ذلك بساعة واحدة ، ومع ذلك ، فقد يبدو أن صلات غامضة قد جمعتهم .

بل أكثر من ذلك : كانوا كأفراد عائلة بقوا وحيدين ، بعد انفضاض الجنازة ، عندما انصرف من لا يهمهم الأمر !

لم يكن الا شعور خفى من جانب ميجريه هو الذى جعله يقول ، بينما كان يتأمل وجه نين حلو القسمات تارة ، وملامح الحارسة الشاحبة تارة أخرى :

— هل وضعت ولديك فى السرير ؟

— أجل ... ولكنهما لم يناما ... انهما قلقان ... يبدو أنهما يشعران ...

وكانت مدام بورسييه تريد أن تسأل سؤالا يكاد يخجلها ، ولكنه كان سؤالا هاما بالنسبة لها .

— هل تعتقد ...

وجالت نظرتها خلال الفنـــاء ، وبدا أنها تتوقف عند جميع النوافذ المطفأة .

— ... أنه ... شخص من المنزل ؟

وهى الآن تحدق النظر فى القبو ، ذلك الرواق الذى لا ينفك بابه مفتوحا ، الا بعد الحادية عشرة مساء ، والذى يصل بين الفناء والشارع ، ويسمح بدخول العمارة لكل مجهول من الخارج .

أما نين ، فقد كانت تتخذ وضعا ممضا ، ومن آن لآخر كانت تسترق النظر الى مفتش المباحث •

ـ ان التحقيق سيجيب عن سؤالك ، يامدام بورسييه ••• أما الآن ، فهناك شيء يبدو أكيدا ، وهو أن الذى سرق الثلاثمائة الف فرنك ليس هو نفسه الذى قتل ••• هذا جائز على الأقل ، مادام السيد كوشيه يسد الخزانة بظهره ••• وبالمناسبة ، هل كان هناك ضوء فى المعمل هذا المساء ؟

ـ انتظر ! ••• أجل ، أعتقد ذلك ••• ولكن ليس مثل الآن ••• فلابد أن السيد كوشيه قد أضاء مصباحا أو اثنين لكى يذهب الى الأحواض ، التى توجد بين الحجرات •

وانتقل ميجريه ليطفىء الأنوار كلها ، بينما كانت الحارسة لاتزال على العتبة ، مع أن الجثة لم تكن موجودة • وفى الفناء ، وجد مفتش المباحث « نين » التى كانت فى انتظاره •

وسمع صوتا فى مكان ما فوق رأسه ، صوت شيء يحتك بزجاج •

ولكن النوافذ كلها كانت مغلقة ، والأنوار كلها كانت مطفأة•

شخص ما تحرك ، شخص ما كان يسهر فى ظلام احدى الحجرات •

ـ الى الغد يامدام بورسييه ••• سأكون هنا قبل فتح المكاتب •••

ـ سأتبعك ! يجب أن أغلق البوابة •••

وعلى طوار الشارع، نوهت « نين » قائلة :

ـ كنت أعتقد أن عندك عربة •

ولم تحاول تركه • بل أردفت وهى تنظر الى الأرض :

ـ فى أية جهة تسكن ؟

ـ على بعد خطوتين من هنا ، شارع ريتشارد لونوار •

ـ لم يعد هناك « مترو » ، أليس كذلك ؟

ـ لا أظن •

ـ أريد أن أصرح لك بشيء •

ـ انني أنصت لك •

وظلت لا تجرؤ على النظر اليه • ومن خلفهما سمعت الحارسة وهي توصد الباب ، ثم سمعت خطواتها وهي في طريقهـــا الى مسكنها • لم يكن في الميدان انسان ، وكانت النافورات تغنى • ودقت ساعة مقر الحكومة معلنة الواحدة •

ـ سترى انني أتجاوز الحد ••• لست أدرى ماذا ستظن بي ••• قلت لك أن ريمون كان كريما للغاية ••• كان لا يعرف قيمة المال ••• كان يعطيني كل ما أريد ••• هل تفهم ؟•••

ـ وبعد ؟ •••

ـ شيء مزر ••• كنت اطلب اقل ما يمكن ••• كنت أنتظر أن يفكر في الأمر ••• وفضلا عن ذلك ، فبما أنه كان معى دائما، فانني لم أكن بحاجة الى شيء ••• اليوم ، كان من المفروض أن أتناول معه العشاء ••• ايه حسنا !

ـ أمعدمة ؟

فاعترضت قائلة :

ـ ليس هذا ! انه أقبح ! كنت قد نويت أن أطلب منه مالا هذا المساء • فقد سددت في الظهر قائمة حسابات •••

كانت تتعذب • ترقب ميجريه ، وهي على اســـتعداد لأن تتقهقر عند أدنى ابتسامة •

ـ لم اتصور ابدا أنه لن ياتى ••• كان لايزال معى قليل من النقود في حقيبتي ••• وفي انتظاره « بالسيليكيت » ، تناولت محارا ثم «لانجوست» ••• واتصلت بالتليفون ••• وعندما وصلت الى هنا فقط ، تبين لى أن معى مايكفي لدفع أجرة السيارة •

ـ وفي بيتك ؟

ـ انني انزل في فندق •••

ـ اننى أسأل ما اذا كان لديك بعض المال المدخر ...

ـ أنا ؟

وندت عنها ضحكة عصبية .

ـ ولماذا أدخر ؟ هل كنت أستطيع أن أعلم الغيب ؟... حتى لو كنت أعلم فانني ماكنت لأحب ...

وتنهد ميجريه قائلا :

ـ تعالى معى حتى شارع بورماشيه . هنـــاك فقط ستجدين سيارة فى هذه الساعة . ماذا ستفعلين ؟

ـ لاشىء ... اننى ...

ولكنها ارتعشت . فقـــد كانت فى الواقـــع لا ترتدى غير الحرير .

ـ ألم يكتب وصيته ؟

ـ وهل أستطيع أن أعرف ، أنا ؟ ... وهل تعتقد أننا نهتم بمثل هذه الأمور ، عندما يكون كل شىء على مايرام ؟... كان ريمون رجلا أنيقا . اننى ...

كانت تبكى وهى تسير ، دونما ضـــوضاء . وناولها مفتش المباحث فى يدها ورقة من فئة المائة فرنك ، وأشار لسيارة كانت تمر ، وتمتم وهو يدس قبضتيه فى جيبه :

ـ الى الغد ... قلت لى فندق بيجال ؟...

وعندما رقـــد فى فراشه ، لم تستيقظ زوجتـــه الا لتغمغم وهى لا تعى تماما :

ـ هل تناولت عشاءك ؟

(٣)

لثائى بيجال

عندما كان ميجريه يغادر منزله ، فى حوالى الثامنة صباحا ، كان عليه أن يختار بين ثلاثة مساع ، يجب أن يقوم بها جميعا فى ذلك اليوم :

وهى زيارة محلات ميدان الفوج واستجواب العمال ، وزيارة مدام كوشيه التى أحيطت علما بالأحداث عن طريق شرطة القسم ، وأخيرا استجواب « نين » من جديد .

وما أن استيقظ من نومه ، حتى اتصل بالشرطة الجنائية وقرأ عليها قائمة بأسماء مستأجرى المنـــزل ، وكل الأشخاص الذين يتصلون بالمأساة من قريب أو من بعيد ، واذا مر بمكتبه ، سيجد فى انتظاره معلومات مفصلة .

وكان السوق ، فى شارع ريتشارد لونوار ، يصول ويجول ، وكان الجو من البرودة بحيث رفع مفتش المباحث ياقة معطفـــه القطيفة . وكان ميدان الفوج قريبا ، ولكن لابد للوصول اليه من السير على الأقدام .

وعندئذ ، مر ترام متجها ناحية ميدان بيجـــال ، الأمر الذى جعل ميجريه يقرر أن يبدأ بزيارة « نين » .

ومن الطبيعى أنها لم تكن قد استيقظت من نومها . وفى مكتب الفندق عرفه ميجريه ، وأثار حضوره القلق .

ـ انها ليست مقحمة فى قصة مزعجة ، على الأقل ؟ فتاة جد هادئة !

ـ هل تستقبل أناسا كثيرين ؟

ـ لا أحد الا صديقها ؟

ـ العجوز أم الشاب ؟

ـ ليس لها غير صـــديق واحد ، لا هو بالعجـــوز ، ولا هو بالشاب ...

وكان الفندق مريحا ، فقد كان هناك مصعد ، وتليفونات في الحجرات . وأنزل ميجريه في الطابق الثالث ، وطرق باب الشقة رقم « ٢٧ » فسمع شخصـــا يتحرك في سرير ، ثم صوتا يهمهم قائلا :

ـ ماذا هناك ؟

ـ افتحي يانين !

لابد وأن يدا خرجت من تحت الأغطيـــه ، وبلغت المزلاج . فدخل ميجريه في ظلال يشوبها ضوء ، ولمح وجه المراه المجعد ، ثم راح يرفع الستائر .

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ لم تبلغ التاسعة بعد ... لا تنزعجي ...

كانت عيناها شبه مغمضتين ، بسبب الضوء الشديد . وعلى طبيعتها ، لم تكن جميلة . وكانت فوق ذلك تبدو اقرب الى الفتاة الريفية منها الى الفانية . ومرت بيدها فوق جبينها مرتين او ثلاث مرات ، وأخيرا جلست على السرير جاعلة من وسادتها متكأ لها . ثم رفعت سماعة التليفون :

ـ أحضروا طعام الافطار !

ثم قالت لميجريه :

ـ يالها من قصة !... الست ناقما علي لأنني اقترضت نقودا منك ، مساء أمس ؟... انه لأمر سخيف !... لابد لي من بيع مجوهراتي ...

ـ هل تملكين منها الكثير ؟

وأشارت الى خوان التزين ، وكانت عليه منفضة (طقطوقة) بها بعض الخواتم ، وسوار ، وساعة ، تبلغ قيمة الجميع خمسة آلاف فرنك ٠

وطرق باب الحجرة المجاورة ، فأصغت « نين » السمع وارتسمت على وجهها ابتسامة مبهمة عندما سمعت الطرق يعاد بالخارج في اصرار ٠

فسأل ميجريه قائلا :

ـ من ؟

ـ جيرانى ؟ لست أدرى ! ولكن لو أمكن ايقاظهما فى هذه الساعة ...

ـ ماذا تعنين ؟

ـ لا شيء ! . انهما لا يستيقظان أبدا قبل الرابعة بعد الظهر ٠

ـ هل يتعاطيان المخدرات ؟

فأومأت بأهدابها بالايجاب ، ولكنها عجلت واضافت قائلة :

ـ أظن أنك لن تستغل ماقلته لك ، أليس كذلك ؟

وفى هذه الأثناء فتح الباب ٠ وكذلك فتح باب حجرة «نين» وبدت عنده خادمة تحمل صينية عليها قهوة باللبن وفطائر ٠

ـ تسمح ؟

كانت تحيط بعينيها زرقة ، وكان قميص نومها يظهر كتفين نحيلتين وصدر ضئيل غير ذى قوة لصبية ساء نموها ٠ وبينما كانت تغمس قطع الفطير فى القهوة الممزوجة باللبن ، كانت تواصل الاصغاء ، كما لو كانت على الرغم من كل شيء ، مهتمة بما كان يدور الى جوارها ٠

ومع ذلك فقد قالت :

ـ هل ساقحم فى هذه القصة ؟ سيكون الأمر مزعجا ، لو تحدثوا عنى فى الصحف ! وخاصة بالنسبة لمدام كوشيه ...

ولما كان الباب يدق دقات خفيفة متلاحقة ، فقد صاحت قائلة:

ـ ادخل !

كانت امرأة فى حوالى الثلاثين من عمرها ، متدثرة فى معطف من الفرو فوق قميص نومها ، وكانت عارية القدمين . وأوشكت أن تتراجع عندما لمحت ظهر ميجـــريه العريض ، لكنها تجاسرت وهمهمت قائلة :

ـ لم أكن أدرى أن لديك أحدا !

وانتفض مفتش المباحث عند سماعه لهذا الصوت الرخيم ، الذى كان يبدو خارجا من فم معجن ، ورمق المرأة التى أعادت غلق الباب ، فرأى وجها لا لون له ، ذا أجفان منتفخة . ورنت له «نين» بنظرة أيدت رأيه . فقـــد كانت هى فعلا الجارة التى تتعـاطى المخدرات .

ـ ماذا حدث لك ؟

ـ لا شىء ! روچيه لديه زائرون ... عندئذ ... سمحت لنفسى ...

وجلست على الأرض بجانب السرير ، خاملة ، وتنهدت قائلة كما فعلت « نين » :

ـ كم الساعة الآن ؟

فقال ميجريه :

ـ التاسعة ! يبدو أنك لا تحبين « الكوكايين » !

ـ ليس هذا بكوكايين ... انه أثير ... روچيـــه يرى أنه أفضل وأن ...

كانت تشعر بالبرد . فقامت لتلتصق بالمدفأة ، ونظـرت الى الخارج وقالت :

ـ لن تلبث السماء أن تمطر ...

كل هذا كان مشوبا بانقباض ويأس . وعلى خوان التزين ، كانت الماشطة مليئة بالشعر المقصوف . وكان جورب « نين » يرقد على الارض .

ـ انني أزعجكما ، أليس كذلك ؟... ولكن الأمر يبدو هاما انه يتعلق بوالد روجيه ، الذى مات ...

كان ميجريه ينظر الى نين فلاحظ أنها قطبت مابين حاجبيها فجأة كمن مرت بخاطره فكرة . وفى نفس الوقت ، راحت المرأة التى انتهت من كلامها منذ قليل ، ترفع يدها الى ذقنها ، وهى تهمهم :

ـ انظرى ! انظرى !

وسأل مفتش المباحث قائلا :

ـ هل تعرفين والد روچيه ؟

ـ لث أره على الاطلاق ... ولكن ... انتظر ! ...

ـ أخبرينى اذن يا نين .. ألم يحدث لصديقك شىء ؟

فتبادل مفتش المباحث ونين نظرة .

ـ لماذا ؟

ـ لا أعرف ... ان الأمر معقد بعض الشىء ... لقد تذكرت من فورى أن روچيه قال لى ذات يوم ان أباه يتردد على الفندق ... وكان هذا الأمر يسليه ... غير أنه كان يفضل ألا يصادفه ، وذات مرة عندما كان أحد الأشخاص يصعد السلم ، أسرع بدخول الحجرة ... ومن ثم ، يبدو أن ذلك الشخص دخل هنا ...

وكفت «نين» عن الأكل . كانت تضيق بالصينية على ركبتيها ، وكان وجهها يكشف عن قلقها .

ـ ابنه ؟...

قالتها بتؤدة ، ونظرها معلق باطار النافذة الزيتى . وصاحت الأخرى :

ـ وعلى ذلك !... وعلى ذلك ، فان صديقك هو الذى مات !... يبدو أن فى الأمر جريمة ...

فاستفسر ميجريه قائلا :

ـ هل روچيه يلقب بكوشيه ؟

ـ روجيه كوشيه ، أجل !

فصمت ثلاثتهم مضطربين ٠

وبعد لحظة طويلة ، سمعت خلالها همهة صوت فى الحجــــرة المجاورة ، استطرد مفتش المباحث قائلا :

ـ ماذا يعمل ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ ما وظيفته ؟

فقالت المرأة فجأة :

ـ أنت من الشرطة ، أليس كذلك ؟

كانت مضطربة ، وربما أوشكت ان تلوم «نين» على أن حرتها فى فخ ٠٠٠ فقالت نين وهى تخرج احدى ســـاقيها من السرير وتميل لتجذب جوربها :

ـ ان مفتش المباحث لطيف للغاية !

ـ كان ينبغى على أن أخمن ذلك !٠٠٠ ولكنك كنت على علم قبل أن ٠٠٠ أن أدخل ٠٠٠

فقال ميجريه :

ـ اننى لم أسمع بروچيه على الاطلاق ! والآن ، ينبغى عليك أن تزودينى ببعض المعلومات عنه ٠٠٠

ـ أنا لا أعرف شـــيئا ٠٠٠ فلم يكد يمضى أسبوعان ونحن معا ٠٠٠

ـ وقبل ذلك ؟

ـ كان بصحبة صـــهباء فارعة تتظاهر بأنها تعمـــل مدرمة للأظافر ٠٠٠

ـ هل له عمل ؟

وكانت هذه الكلمة كافية لتزيد من حدة الضيق ٠

ـ لست أدرى ٠٠٠

ـ معنى هذا انه لايقوم بأى عمل ٠٠٠ هل لديه ثروة ؟٠٠٠ هل ينفق بسخاء ؟

ـ كلا ! اننـــا نأكل دائما فى مطعم محدد الأسعار ، بست فرنكات ...

ـ هل يتحدث عن أبيه فى أغلب الأحيان ؟

ـ لم يتحدث عنه غير مرة واحدة ، كما قلت لك ...

ـ هل تستطيعين أن تصفى لى زائره ؟ هل سبقت لك مقابلته؟

ـ كلا ! انه رجل .. كيف اقول ؟ لقد ظننته محضرا ، وعندما جئت الى هنا اعتقدت ان الأمر كذلك وان روجيه مدين ..

ـ وهل هو حسن الهندام ؟

ـ انتظر . لقد رأيت قبعته ، ومعطفا أسمر ، وقفازا ...

كان يوجد بين الحجرتين باب اتصال يحجبه ستار ويرجح انه مسدود . وكان فى استطاعة ميجريه أن يلصق به اذنه ويســمع كل شىء ، غير انه كره أن يفعل ذلك امام المراتين .

وارتدت نين ثيابها ، واكتفت ، اســتعاضة عن الفســـيل ، بتمرير منشفة مبللة فوق وجهها . كانت عصبية . وكانت حركاتها مضطربة . كان المرء يشعر ان الاحداث تفوقها ، وانها الآن تتوقع المصائب جميعــا ، وانها لاتستشعر قوة للمقــاومة ، بل ولا حتى لمحاولة الفهم .

أما الأخرى فكانت اكثر هــدوءا ، وربما كان ذلك لأنها كانت لا تزال تحت تأثير الأتير او ربما لأنها كانت اكثر خبرة بمثل هذه الامور .

ـ ما اســمك ؟

ـ سيلين .

ـ هل لك مهنة ؟

ـ كنت اعمل مصففة شعر فى المنازل .

ـ مقيدة بسجل شرطة الآداب ؟

فهزت راسها بالنفى ، دون أن تشعر بالاهانة . وكانت هناك همهمة صوت لاتزال تصل الآذان من الجانب المجاور .

اما نين ، وكانت قد ارتدت ثوبا ، فقدكانت تتأمل الحجرة من حولها .. وفجاة راحت تنفجر منتحبة ، وتقول وهى تتعلثم :

ـ يا الهى ! يا الهى !
فقالت سيلين بتؤدة :

ـ يا لها من قصة غريبة ! واذا كان فى الأمر جريمة حقا ؟ فسيكون هناك مايزعجنا ...

ـ أين كنت بالأمس فى حوالى الثامنة مساء ؟
ففــكرت :

ـ انتظر !.. الثامنة .. ايه حسن ! كنت فى «السيرانو» .

ـ وهل كان روجيه فى صحبتك ؟

ـ كلا .. اننا لانستطيع أن نكون سويا طوال الوقت .. لقد التقيت به عند منتصف الليل ، فى حانوت دخان شارع فونتين .

ـ وهل اخبرك من أين أتى ؟

ـ لم أسأله شيئا ...

ومن خلال النافذة ، كان ميجريه يلمح ميدان بيجال ، وحديقته الصغيرة ولافتات الحانات. وفجأة ، اذا به ينتصب، ويسير ناحية البـــاب .

ـ عليكما بانتظارى ، كلاكما ؟

وخرج ، وطرق الباب المجاور وسرعان ما أدار « أكرته » .

كان هناك رجل يرتدى المنامة ويجلس فى الـكرسى الوحيـد الموسد الذى يوجد فى الحجرة . وعلى الرغم من النافذة المفتوحة كانت رائحة الأثير المنفرة تسود الحجرة . وكان هناك رجل آخر يسير وهو يكثر من الحركات . كان هذا هو السيد مارتان ، الذى كان ميجريه قد صادفه مرتين عشية الأمس ، فى فنـــاء ميدان الفوج .

***

ـ ها قد وجدت قفازك !

وكان ميجريه ينظر الى يدى موظف التسجيل ، الذى غــدا شاحبا حتى اعتقد مغتش المباحث لحظة انه لن يلبث أن يفقد وعيه

كانت شفتاه ترتعشان . كان يحاول أن يتكلم دون أن يوفق الى ذلك .

ــ انني .. انني ..

لم يكن الشاب حليق الذقن ، كان في لون الورق الممضوغ وكانت عيناه تحوطهما هالة حمراء وشفتاه رخويتين تكشفان عن نخوره . كان مشغولا بشرب الماء بشراهة من كوب بين أسنانه .

ــ هدىء من روعك ، ياسيد مارتان ! لم أكن آمل أن اقابلك هنا وبخاصة في وقت من المفروض أن يكون مكتبك فيه مفتوحا منذ فترة طويلة .

كان يراقب الرجل الطيب من اخمص قدمه حتى أم رأسه . وكان ينبغى عليه بذل مجهود حتى لاتأخذه الشفقة به ، فقد كان المسكين يبدى ارتباكا شديدا .

ومن حذائه حتى رباط عنقه الذى يحيط بياقة من البلاستيك كان السيد مارتان يمثل النموذج الكاريكاتورى للموظف ، موظف متكلف فى نظافته وفاضل ، ذو شاربين أتقن تلميعهما ، دونما ذرة من تراب فوق ملابسه ، وربما اعتقد ان خروجه بدون قفاز امر معيب .

والآن ، انه لايدرى كيف يتصرف حيالهما ، حيال يديه ؟ وكانت نظرته تنقب فى أركان الحجرة التى تسودها الفوضى كما لو كان يبحث فيها عن الهام .

ــ هل تسمح لى بسؤال ياسيد مارتان ؟ منذ متى وانت تعرف روجيه كوشيه ؟

لم يكن الرعب هو الذى حل . وانما كان الخيال .

ــ انــا .. ؟

ــ أجل .. أنت !

ــ منذ .. منذ زواجى !

كان يقول ذلك كما لو كان الامر بديهيا لا يحتاج الى توضيح .

ـ لست افهم ؟

ـ ان روجيه هو ابن زوجتى .

ـ وابن ريمون كوشيه ؟

ـ أجل .. مادام ..

لقد استعاد اطمئنانه .

ـ كانت زوجتى هى الزوجة الأولى لكوشيه .. وقد انجبت منه ابنا ، هو روجيه .. وعندما انفصلت عن زوجها ، تزوجتها أنـا ..

لقد احدث هـذا البيان تأثير عاصفه شديدة سريعة أزاحت سحبا من سماء . لقد تغير على اثره بيت ميدان الفوج . وتغيرت طبيعة الأحداث ، فوضحت بعض النقـاط وعلى النقيض من ذلك اصبح بعضها الآخر مدعاة لبلبلة الأفكار واقلاقها أكثر من ذى قبل .

حتى أن ميجريه لم يعد ليجرؤ على الـكلام . كان فى حاجة الى تنظيم افكاره . كان ينقل نظره بين الرجلين بقلق متزايد ..

لقد سألته حارسة البيت ، فى نفس الليلة ، وهى تنظر الى جميع النوافذ التى تبدو للعيان من الفناء :

ـ هل تعتقد انه شخص من البيت ؟

وكانت نظرتها تتعلق بالقبو . كانت تأمل أن يكون القاتل قد ولج منه ، وأن يكون هذا الشخص من الخارج .

ايه كلا ! كانت المأساة محصورة فى البيت ! ولم يكن ميجريه قادرا على تعليل ذلك ، ولـكنه كان واثقا منه .

اية مأساة ؟ انه لايدرك منها شيئا !

كل ماهنالك ، انه كان يشعر بأن خيوطا خفية تمتد ، وتوصل بين جهات مختلفة فى المـكان ، فتخرج من ميدان الفوج الى فندق شارع بيجال هذا ، ومن شقة آل مارتان ، الى مكتب المصل التابع للدكتور ريفيير ، ومن حجرة « نين » الى حجرة ذلك الثنائى البليد تحت تأثير الأثير .

ان اكثر ماكان يثير القلق فيالموضوع ، وبماكان مشهد السيد مارتان وهو ملقى فى هذه المتـاهة كنحـلة لا تعى . كانت يداه لاتزالان مغلفتين فى القفاز ، وكان معطفه فى حـد ذاته يمثل له برنامج حياة كريمة . وكانت نظرته قلقة تسعى الى التعلق بمـكان ما دون أن توفق الى ذلك . وراح يتلعثم قائلا :

ــ جئت لأخبر روجيه ..

ــ اجـل ..

كان ميجريه ينظر اليه فى عينيه ، نظرة هادئة عميقة ، وهو يكاد يتوقع لمحدثه أن يتضاءل من الـكرب .

ــ لقد قالت لى زوجى أن من الأفضل أن نكون نحن الذين ..

ــ فـاهم !

ــ ان روجيه سريع الـ ...

فأكمل ميجريه قائلا :

ــ سريع التأثر ، شاب عصبى !

وراح الشـاب ، وكان قد بلغ كوب المـاء الثالثة ، يرمقه بنظرة حاقـدة .

كان فى الخامسة والعشرين ، غير أن ملامحه كانت قد كلت ، وذبلت منه الجفون .

ثان لايزال جميلا ، جمالا من شأنه أن يفتن بعض النساء .

كانت بشرته كامدة ، ولم يكن به شيء لم يصطبغ بطابع رومانسي حتى مظهره المتعب الذى يبدو عليه شيء من الاشمئزاز .

ــ قل لى ياروجيه ، هل ترى والدك فى أغلب الأحيان ؟

ــ فى بعض الأحيـان !

ــ أين ؟

كان ميجريه يتطلع اليه بنظرة قاسية .

ــ فى مكتبه .. أو فى المطعم ..

ــ متى رأيته لآخر مرة ؟

ـ لا اعرف .. منذ عدة أسابيع »
ـ وهل طلبت منه مالا ؟
ـ كما يحدث دائما !
ـ باختصار ، كنت تعيش على نفقته ؟
ـ لقد كان من الثراء بحيث ...
ـ لحظة ! اين كنت بالأمس فى حوالى الثامنة مساء ؟
ولم يبد ترددا :
ـ فى السيليكت .
قالها مصحوبة بابتسامة ساخرة ، تعنى :
ـ لعلك تعتقد اننى لا أدرى الى أين تريد أن يؤدى ذلك !
ـ ماذا كنت تفعل فى السيليكت ؟
ـ كنت فى انتظار ابى !
ـ اذن ، فقد كنت فى حاجة الى مال ! وكنت تعرف أنه سيأتى الى السليكيت ..
ـ انه يكون هناك كل ليلة تقريبا بصحبة عشيقته ! وفوق ذلك فقد سمعته فى العصر يتحدث فى التليفون .. لأننا نسمع مايقال فى الجانب المجاور ..
ـ وعندما وجدت ان والدك لايأتى ، الم تخطر لك فكرة بالذهاب اليه فى مكتبه بميدان الفوج ؟
ـ كلا .. !
والتقط ميجريه من فوق المدفأة صورة فوتوغرافية للشاب ، كانت تحوطها صور نسائية عديدة . ووضعها فى جيبه وهو يدمدم قائلا :
ـ تسمح ؟
ـ لو كان هذا يسرك !
وراح السيد مارتان يقول :
ـ الا تعتقد ؟ ...
ـ اننى لا اعتقد فى شىء . ان هذا يجعلنى افكر فى توجيه

بعض الأسئلة اليك . ما هي العلاقات بين بيتك وبين روجيه ؟
ـ كان لايأتي في أغلب الأحيان .
ـ وعندما كان يأتي ؟
ـ كان لايلبث غير دقائق معدودة ...
ـ وهل أمه على علم بطبيعة حياته ؟
ـ ماذا تريد أن تقول ؟
ـ لا تتغابى ، ياسيد مارتان ! هل تعلم زوجك أن ابنها يعيش في «مونمارتر» بدون أي عمل ؟
وراح الموظف ينظر الى الأرض ضيقا . وقال متنهدا :
ـ لقد حاولت كثيرا أن ادفعه الى العمل !
وفي هذه المرة ، بدأ الشاب يدق فوق المنضدة في جزع .
ـ أظنك تلاحظ انني لازلت في المنامة وأن ...
ـ هل تسمح فتخبرني عما اذا كنت رأيت بالأمس احدا من معارفك في «السيليكت» .
ـ رأيت نين !
ـ وهل تحدثت اليها ؟
ـ عفوا ! انني لم أوجه اليها حديثا على الاطلاق !
ـ وفي اي مكان كانت تجلس ؟
ـ الى المائدة الثانية الى يمين « البار » .
ـ اين عثرت على قفازك ، ياسيد مارتان ؟ اذا لم تخني ذاكرتي فلقد كنت تبحث عنه في تلك الليلة بالقرب من صناديق القمامة ، في الفناء ..
فندت عن السيد مارتان ضحكة قصيرة عسيرة .
ـ كان في البيت ! . تصور انني خرجت «بفردة» واحدة ولم الحظ ذلك ..
ـ عندما غادرت ميدان الفوج ، اين ذهبت ؟
ـ تنزهت .. على طول الطوار .. فقد كنت .. كنت اشعر بصداع ..

ــ هل تتنزه غالبا فى المساء ، بدون زوجتك ؟
ــ احيـــانا !
كان يتعذب ، ولم يكن يدرى ماذا يصنع بيديه المغلفتين فى القفاز .
ــ وهل انت ذاهب الآن الى مكتبك ؟
ــ كلا ! لقـــد اعتذرت بالتليفون . فأنا لا أستطيع أن اترك زوجتى فى ...
ــ ايه حسن ! اذهب اذن لتكون الى جوارها ...
ومكث ميجريه . وراح الرجل الطيب يبحث عن طريقة لائقة للاستئذان .
ــ الى الملتقى ، يا روجيه ..
قالها وهو يبتلع لعابه ..
ــ اعتقد .. اعتقد أن من الأفضل أن تزور والدتك ..
ولـكن روجيه اكتفى برفع كتفيه والتطلع الى ميجريه بجزع ، وسمعت ضوضاء السيد مارتان وهى تتلاشى على السلم .
كان الشاب لايقول شيئا . وراحت يده ، بطريقة آليـــة ، تجذب زجاجة من الأتير ، كانت فوق منضدة السرير ، وتضعهـــا بعيـــدا .
وسأل مفتش المباحث بتؤدة :
ــ اليست لديك اية تصريحات تريد الادلاء بها ؟
ــ كلا !
ــ لأنه لو كان ماتريد أن تقوله ، فمن الأفضل أن تدلى به الآن على أن تدلى به فيما بعد ..
ــ لن يكون لدى ما اقوله لك فيما بعد .. بلى ! . هناك شيء اريد أن اقوله لك حالا : وهو انك تدس نفسك فى الأمور اكثر من اللازم ...
ــ طبعا ، مادمت لم تر والدك ، مســـاء أمس ، فلابد وانك الآن بدون مال ؟

ـ هو ماتقول !
ـ واين ستجد المـال ؟
ـ لاتشغل بالك بشانى .. ارجوك .. تسمح ؟..
وراح ، يصب بعض المـاء فى الطست ليغتسل .
وبثبات ، شرع ميجريه يخطو بضع خطوات فى الحجرة ، ثم خرج ، ودخل الجانب المجاور ، حيث كانت المراتان فى انتظاره . وفى هذه المرة كانت سيلين هى التى تبدو أكثر اضـطرابا . أما « نين » وكانت جالسة فى الكرسى المبطن ، فقد كانت تفرض منديلا فى هدوء وهى تتطلع الى فراغ النافذة بعينيها الواسعين الحالمتين .
وراحت عشيقة روجيه تسال قائلة :
ـ وماذا بعد ؟ ..
ـ لا شيء ! تستطيعين الانصراف .
ـ هل والده فعلا هو الذى ؟ . .
ثم قالت ، فجأة ، وقد تغضن جبينها :
ـ ولكنه عندئذ ، سيرث ؟
وانصرفت وهى تفكر .
وعلى طوار الشارع ، سأل ميجريه رفيقته .
ـ الى أين ذاهبة ؟
فندت عنها حركة مبهمة غير مكترثة ، ثم قالت :
ـ انى ذاهبة الى ملهى « الطاحونة الزرقاء » لأرى ما اذا كانوا يرغبون فى اعادتى الى العمل ..
كان يرنو اليها باهتمام ودود .
ـ هل كنت تحبين كوشيه كثيرا ؟
ـ قلت لك ذلك بالأمس : لقد كان نموذجا للرجل الانيق ... والمرء لا يعثر على امثاله كثيرا ، اقسم لك ! .. عندما افكر أن شخصا قذرا قد ...
وسالت عبرتان ، ثم لا شيء بعد ذلك .
ـ هنا ! قالتها وهى تدفع بابا صغيرا خصص لدخول الفنانين .
وكان ميجريه يشعر بالظمأ ، فدلج الى « بار » لـكى يتناول

قدحا من النبيذ كان عليه أن يذهب الى ميدان الفوج . الا أن رؤية جهاز التليفون جعلته يتذكر انه لم يمر بعد بطوار المصوغات ، وأنه ربما كان هناك بريد عاجل فى انتظاره . فطلب خادم المكتب ؟

ـ اهـذا أنت يا جان ؟ .. لا شىء لى ؟ .. كيف ؟ .. سيدة تنتظر منذ ساعة ؟ .. تلبس الحداد ؟ .. اليست هى مدام كوشيه ؟ .. هيه ؟ .. حرم السيد مارتان ؟ .. انا آت ؟

حرم السيد مارتان فى زى الحداد ! وتنتظره منذ ساعة فى ردهة مركز الشرطة القضائية !

كل ما يعرفه ميجريه عنها لايعدو خيالا من الظل : ذلك الخيال الغريب الذى رآه بالأمس ، على ستار الطابق الثانى ، عندما كان يتحرك وقد راحت شفتاه تضطربان فى تشهير شنيع .

ـ ان هذا يقع فى أغلب الأحيان ! كذلك قالت له حارسة البيت .

وموظف التسجيل الطيب المسكين ، الذى نسى قفازه ، وراح يتنزه بمفرده وسط ظلام الأرصفة ..

وعندما غادر ميجريه الفناء ، فى الواحدة صباحا ، كانت هناك ضوضاء تصدر عن زجاج نافذة !

وصعد سلم مركز الشرطة القضائيـة المترب فى تؤدة ، وفى طريقه شد على أيدى بعض الزملاء وأنفذ رأسه من خلال باب الردهة المنفرج .

كانت هناك عشرة كراسى مبطنة بالقطيفة الخضراء ، ومنضدة اشبه بمنضدة البلياردو . على الحائط لوحة الشرف : مائتا صورة تمثل مفتشين قتلوا أثناء تأدية الخدمة . وعلى الكرسى الماثل فى الصدارة ، تجلس سيدة ترتدى السواد ، متوترة للغاية ، تحمل حقيبتها فى احدى يديها وتستقر يدها الاخرى على مقبض مظلة . شفتان دقيقتان ، ونظرة حادة تصوبها أمامها .

ولم تأت حراكا عندما شعرت بأن هناك من يلاحظها .
وبهذه الملامح الجامدة ، كانت تنتظر .

(٤)

نافذة الطابق الثانى

وسبقت ميجريه بتلك الأنفة العدائية التى تسم أولئك الذين يجدون فى سخرية الآخرين شر البلايا .

ـ تفضلى بالجلوس ، ياسيدتى !

كان ميجريه يبدو ثقيـــلا ، طيبا ، عيناه مبهمتان ، عنـــدما استقبلها وعين لها كرسيا ينيره مستطيل النافذة . فاستقرت فيه متخذة نفس الوضع الذى كانت عليه فى الردهة قبلا .

وضع وقور ، بلا شك ! ووضع معركة أيضا ! لم تكن عظـام كتفيها لتلمس المسند . وكانت يدها التى يغلفها قفاز من الخيوط السوداء متأهبـــة للتحرك دون أن تدع الحقيقة التى ستتأرجح فى الهواء لم حدث ذلك .

ـ أظنك ، ياسيدى المفتش ، تتساءل لماذا أنا ...

ـ كلا !

لم تكن شراسة من جانب ميجريه أن حيرها بهذه الطريقة منذ أول احتكاك . ولم تكن مصادفة كذلك . كان يعرف أن ذلك أمر ضرورى . واعتدل ، هو ، فى كرسى المـــكتب . كان مطروحا الى الوراء ، فى وضع مبتذل ، يدخن غليونه فى أنفاس قصيرة شرهة .

وارتجفت مدام مارتان ، أو بالأحرى تصلب كتفها .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ اننى أظن أنك لم تكن تنتظر أن ...!

ـ بلى !

وابتسم لها ابتسامة ساذجة • وفجأة راحت الأصابع تقلق في القفاز الأسود المنسوج • وبنظرة حادة ، جابت الأفق وطـــرق مدام مارتان الهام فقالت :

ـ هل تلقيت خطابا من مجهول ؟

كانت تؤكد وهي تستفسر ، وقد اتخذت مظهر الواثقة ممـا تقول ، الأمر الذى جعل المفتش يبتسم ابتسامة عريضة ، لان هذا أيضا كان سمة مميزة تتفق وكل ما كان يعرفه عن محدثته •

ـ لم أتلق خطابات من مجهول •••

فهزت رأسها متشككة •

ـ لا تحاول أن تقنعنى •••

كانت تخرج متدفقة حياة من سجل صـــور العائلة • وكانت تتناسب قدر المستطاع مع موظف التسجيل الذى تزوجته •

كان المرء لا يجد صعوبة فى أن يتخيلهما ، عصر الأحد ، وهما يرتقيان الشانزليزيه : ظهر مدام مارتان الأسود العصبى ، وقبعتها المنحرفة دائما بسبب الشعر المتجمع فوق رأسها ، ومشيتها العجلى التى تنم عن امرأة نشيطة ، وحركة ذقنها التى تشير الى كلمـــات قاطعة ••• والمعطف المطاط الخاص بالسيد مارتان • وقفـــازه الجلدى ، وعصاه ، ومشيته المطمئنة ، الهادئة ومحـــاولاته فى التسكع والتوقف أمام المعروضات •••

ـ هل كان لديك ملابس حداد ؟

هكذا دمدم ميجريه بمكر وهو يطلق نفخةضخمة من الدخان•••

ـ لقد توفيت أختى منذ ثلاث سنوات ••• أقصد أختى المقيمة فى « بلوا » ، التى تزوجت من مفتش مباحث ••• وهـــكذا ترى أن •••

ـ أن ؟•••

لاشىء ! كانت تحذره ! كان الوقت مناســبا لتشعره بأنهـا ليست كأية امرأة !

ومن جهة أخرى ، بدت عصبية ، ذلك لأن الحديث الذى كانت قد أعدته لم يعد يجدى فتيلا بسبب ذلك المفتش الثقيل ٠

ـ متى علمت بموت زوجك الأول ؟

ـ طبعا ٠٠٠ صـــباح اليوم ، مثل الجميع ! ان الحارسة هى التى أخبرتنى أنك تتولى هذا الأمر ، ولما كان موقفى حساسا ٠٠٠ لن تستطيع أن تدرك ٠

ـ بلى ! وبالمناسبة ، ألم يقم ابنك بزيارتك عصر الأمس ؟

ـ بماذا تريد أن تلمح ؟

ـ لاشىء ٠ مجرد سؤال ٠

ـ تستطيع الحارسة أن تخبرك بانه لم يأت لزيارتى منذ ثلاثة أسابيع على الأقل ٠٠٠

كانت تتكلم بجفاء ٠ فازدادت نظرتها عدوانية ٠ ألم يخطىء ميجريه اذ لم يدعها تلقى حديثها ؟

ـ اننى سعيد بمسعاك لأنه يدل على رقتك و ٠٠٠

لقد غير كلمة «رقة» وحدها شيئا ما فى عينى المرأة الرماديتين، فأحنت رأسها تعبيرا عن الشكر ثم قالت :

ـ هناك مواقف شديدة الصعوبة ! لا أحد يدرك ذلك ٠ حتى زوجى ، الذى يشير على بعدم ارتداء الحداد ! وأنت تلاحظ أننى أرتديه دون أن أرتديه ، فلا خمـــار ! ولا كريب ! مجرد ملابس سوداء ٠٠٠

وراح يؤيد بذقنه ، ووضع غليونه فوق المنضدة ٠

ـ ليس لأننا منفصلان ، ولأن روجيه أشقانى ، اننى ٠٠٠

واستعادت اطمئنانها ، وراحت تقترب بلا شعور من الحـديث المعد ٠

ـ وبخاصة فى منزل كبير كهذا ، به ثمان وعشرون عائلة ! ، وأية عائلات ! أنا لا أتحدث عن سكان الطابق الأول ! وزيادة على ذلك ! إذا كان السيد سان ـ مارك قد تلقى تربية طيبة فان زوجته

قد لا تحيى النـــاس نظير ذهب العالم كله ... عندما يتلقى المرء تربية محترمة ، فمن الصعب عليه أن ...

ـ هل ولدت في باريس ؟

ـ كان أبى بائع حلوى فى « ميو » ...

ـ فى أية سن تزوجت من السيد كوشيه ؟

ـ كنت فى العشرين من عمرى ... لاحظ أن والدى ما كانا ليدعانى أخدم فى المحل ... فى ذلك العصر كان كوشيه يتجول...

كان يؤكد أنه يكسب بسخاء ، وأنه قادر على اسعاد امرأة...

وراحت نظرتها تجمد ، وتتأكد أن ليس ثمة تهديد بالسخرية عند ميجريه .

ـ أفضـــل الا أقول كم قاسيت معه !... كل الأموال التى كان يجمعها ، كان يفقدها فى المضاربات المزرية ... كان يدعى أنه سيصبح غنيا ... وكان يغير مكانه ثلاث مرات فى العام ، لدرجة أنه عندما ولد ابنى لم يكن لدينا درهم ندخره ، وكان على أمى أن تدفع ثمن القماط ...

وأخيرا وضعت مظلتها قبالة المكتب . وتصور ميجريه أنهـا ستتحدث بنفس الحـــدة الجافة التى كانت تتحدث بها عشـــية الأمس ، عندما لمح خيال ظلها على الستار .

ـ اذا كان المرء لا يستطيع أن يعـــول امرأة ، فلا ينبغى له أن يتزوج ! هذا هو ما أقوله ! وبخاصة اذا كان الشخص لا يتمتـــع بشىء من عزة النفس . لأننى لا أكاد أستطيع أن أحصى لك جميـــع المهن التى مارسها كوشيه ... كنت أطلب اليه أن يبحث عن مركز محترم ، بمعاش مضمون ... فى الحكومة ، مثلا !... على الأقل ، لو حدث له شىء ، لا أبقى أنا بلا شىء ... ولكن كلا ! لقد بلغ به الأمر أن يتبع سباق فرنسا للدراجات لست أدرى بأية صفة ... كان هو الذى يرحل فى المقدمة ويتولى مهمة التموين أو شىء من هذا القبيل ! وكان يعود بلا مليم واحد . هـــذا هو الرجل ! وهذه هى الحياة التى عشتها ...

ـ أين كنتما تسكنان ؟

ـ فى نانو ! لأننا لم نكن نستطيع دفع ايجار مسكن فى المدينة هل عـرفت كوشـيه ؟ . لم يكن ليبـالى بذلك ، هو ، ولم يكن ليخجـل من ذلك ! ولم يكن قلقـا !... كان يدعى أنه ولد ليجنى أموالا كثيرة وأنه سيجنيها ... وبعد الدراجات ، أتى دور سلاسل الساعات ... كلا ! انك لا تسـتطيع أن تتكهن ... سلاسل ساعات يبيعها فى أسواق عامة ياسيدى ! وكانت أخواتى لا تجرؤن على الذهاب الى سوق «نوبى» خشية أن يقابلنه على هذه الحال ...

ـ هل أنت التى طلبت الانفصال ؟

وأطرقت برأسها فى حياء ، غير أن ملامحها لاتزال مشدودة.

ـ كان السيد مارتان يسكن نفس العمارة التى كنا نسكنها ... كان أكثر شبابا منه الآن ... وكان يتمتع بمركز محترم فى الحـكومة ... وكان كوشيه يتركنى دائما وحيـدة ليجرى وراء المغامرات ... أوه ! فلم يكن هناك غير حل صحيح ولائق !... وقد أبلغته لزوجى ... وكان طلب الانفصال باتفاق متبادل بسبب التنافر فى الطباع ... وكان على كوشيه أن يدفع لى فقط نفقة من أجل الطفل ... وانتظرنا مارتان وأنا ، عاما قبل أن نتزوج ...

وهنا راحت تتحرك فوق الكرسى ، وراحت أصابعهـا تجذب مقبض الحقيبة الفضى .

ـ وكما ترى ، لم يكن لى حظ على الاطلاق .

وفى البداية لم يكن كوشيه يسدد النفقة بانتظام ! ومن الصعب بالنسبة لامرأة حساسة ، أن ترى زوجها الثانى يقوم بالانفاق على طفل ليس ابنه ...

كلا ! لم يكن ميجريه نائما ، على الرغم من عينيه المسبلتين ، والغليون المطفأ الذى وضعه بين أسنانه .

لقد غدا الأمر أكثر كدرا فقـد اغرورقت عينا المرأة وبدأت شفتاها تضطربان بطريقة تثير القلق .

ـ لم يكن هناك أحد غيري يعرف أنني قاسيت ••• قمت على تعليم روجيه .. اردت له أن يحصل على ثقافة محترمة .. لم يكن ليشبه أباه ••• كان عطوفا ، حساسا ••• وعندما بلغ السابعة عشرة ، وجد له مارتان مكانا في أحد البنوك لكي يتعلم مهنة ••• ولكنه قابل كوشيه ، في هذه الأثناء لا أدري أين •••

ـ هل اعتاد أن يطلب أموالا من أبيه ؟

ـ لاحظ أن كوشيه كان يرفض لي كل طلب ! كان كل شيء من أجلي غاليا للغاية . كنت أتولى حياكة أثوابي بنفسي ، وكنت أحتفظ بالقبعة ثلاث سنوات •••

ـ أو كان يعطي روچيه كل ما كان يطلبه ؟

ـ لقد افسده ! . فقد هجرنا روجيه ليعيش وحده .. ولازال يأتيني من آن لآخر .. ولكنه كان يذهب أيضا لزيارة والده ! .

ـ هل تسكنان ميدان المفوج منذ فترة طويلة ؟

ـ منذ ثماني سنوات تقريبا .. عندما عثرنا على الشقة ، لم نكن حتى نعلم أن كوشيه يعمل في الأمصال ... وقد أراد مارتان أن ننتقل الى مسكن آخر .. ما كان لينقصنا غير ذلك !.. لو كان هناك من يجب أن يرحل ، لكان كوشيه أليس كذلك ؟.. كوشيه ، وقد اصبح ثريا بطريقة لا أعرفها ، والذي كنت أراه يصل في عربة يقودها سائق !.. فقد كان لديه سائق .. ورأيت زوجته .

ـ في بيتها ؟.

ـ لقد ترقبتها على طول طوار الشارع ، لأتأمل شكلها .. انني أفضل الا أقول شيئا . لم تكن شيئا عظيما ، على كل حال ، على الرغم من المظاهر التي كانت تبديها وعلى الرغم من معطفها الاستراخاني ..

فمر ميجريه بيده فوق جبينه . لقد راح الأمر يتحول الى فكرة مسيطرة ؛ فقد مضى ربع ساعة وهو يثبت نظره في نفس الوجه ، ولاح له الآن انه قد لا يستطيع محوه من غشاء عينيه .

وجه رقيق ، زال عنه لونه ، ذو ملامح دقيقة ، كثيرة الحركة ، ويبدو أنه لم يعبر في حياته الا عن ألم مستسلم .

وذكره هذا أيضا ببعض شخصيات العائلات ، بل بشخصيات من عائلته هو . فقد كانت له عمة ، أضخم من مدام مارتان ، لكنها كانت هي الأخرى دائمة الشكوى . فعندما كانت تزورهم ، وهو حينئذ طفل ، كان يدرك أنها ما أن تجلس حتى تخرج منديلا من حقيبتها .

واستطردت مدام مارتان :

ـ ارمانس ، أيتهـــا الشقية ! .. أية حياة ! ينبغي أن أقص عليك مافعله بيير فوق ذلك ..

كانت لاتزال محتفظة بذلك القنـــاع المتحرك ، وتلك الشفتين الدقيقتين ، وتلك العينين اللتين كان يعبرهما في بعض الأحيان شيء أشبه بضوء شارد .

وفقدت مدام مارتان خيط أفكارها فجأة . فقد كانت مضطربة .

ـ والآن ، يجب أن تدرك موقفي .. طبعا ، تزوج كوشيه مرة أخرى . ولم يحل دون ذلك أنني كنت زوجته ، وأنني قاسمته مطلع حياته ، أي أقسى سنوات عمره .. وليست الأخرى أكثر من دمية .

ـ هل لك مطالب بخصوص الميراث ؟

ـ أنا ! ..

صرخت بهـــا حانقة ـ انني لا أرغب في ماله على الاطلاق ! نحن لسنا أغنياء ! ومارتان يعوزه الاقدام ولا يعرف كيف يتقدم ، ولا يتورع عن تقطيع العشب تحت أقدام زملاء له أدنى منه ذكاء .. ولكنني افضل أن أخدم في المنازل عن أن أرغب ..

ـ هل أرسلت زوجك ليخبر روجيه ؟

لم تشحب ، لأن ذلك كان أمرا مستحيلا . بل ظل لونها رماديا على درجة واحدة . غير أن تموجا ما طرأ على نظرتها .

ـ كيف عرفت ؟

وأضافت فجأة وهي حانقة :

ـ آمل ألا يكون هناك من يراقبنا ، على الأقل ؟ اذن لطفح الكيل !٠٠ وفى هــذه الحال لن أتردد في أن ألجأ الى السلطات العليا ٠٠

ـ هــدئى من روعك ، ياسيدتى ٠٠ أنا لم أقل مثل هــذا الكلام ٠٠ ان المصـادفة هى التى جعلتنى أقابل السيد مارتان صباح اليوم ٠٠

ولكنها ظلت متشككة ، ترمق مفتش المباحث بلا رقة ٠

ـ لسوف أندم على أننى حضرت !٠٠ أردت أن أتبع الطريق الصحيح وبدلا من أن تشكرنى ٠٠٠

ـ أؤكد لك أننى أشكر لك هذه الزيارة شكرا جزيلا ٠

ولم يغير هــذا من شعورها ٠ فهــذا الرجل الضخم عريض المنكبين ، الذى يرمقها بعينين ساذجتين كلتيهما خاليتين من الأفكار، كان يفزعها ٠

ـ على كل ـ نطقت بها بصوت حاد ـ من الأفضل أن يكون المتكلم أنا ، لا الحارسة ـــ عندئذ ، كنت ستعلم ٠٠

ـ انك أول زوجة للسيد كوشيه ٠٠

ـ هل رأيت الأخرى ؟

وبذل ميجريه شيئا من الجهد حتى لا يبتسم ٠

ـ ليس بعد ٠٠

ـ أوه ! لسوف تذرف دموع التماسيح ٠٠ ولا يمنع هذا أنها الآن هادئة البال ٠٠ فبالملايين التى جمعها كوشيه ٠٠

وها هى تبكى فجأة ، وترتفع شفتها السفلى ، الأمر الذى غير وجهها ، ونزع عنه ما كان يشده ٠

ـ انها لم تعرفه عندما كان يكافح ، عنــدما كان فى حاجة إلى امرأة تساعــده ، وتشجعه ٠٠ ومن وقت لآخر ، كانت تنطلق

زفرة مكتومة ، لاتكاد تسمع ، تخرج من العنق النحيل الذي شدة عليه شريط من الحرير المموج .

ونهضت ، وراحت تتطلع حولها لكى تتأكد أنهـــا لم تنس شيئا .

ـ ولكن هذا كله ليس له حساب ..

وندت عنها ابتسامة مريرة ، تحت الدموع :

ـ على كل ، لقد أديت واجبى .. لست أدرى ماذا تظن بى ، ولكن ..

ـ أؤكد لك أن ...

كان سيحتار فى مواصلة حديثه لو لم تكمل هى بنفسها :

ـ يستوى هذا بالنسبة لى ! ان عندى ضميرى الذى يحركنى ! لا أحد يستطيع أن يذكره كما ...

كان ينقصها شيء ما . لم تكن تعرف ماذا يكون . وألقت نظرة أخرى دائرية ، وحركت احدى يديها ، وكأنها تعجب اذ وجدتها فارغة .

وكان ميجريه واقفا ، فأوصلها الى الباب .

ـ أشكر لك مسعاك ..

ـ لقد قمت بما اعتقدت أن من واجبى القيام به ..

وبلغت الدهليز ، حيث كان بعض المفتشـــين يثرثرون وهم يضحكون . فمرت بالقرب منهم فى أنفه ، دون أن تدير رأسها .

وبعد أن أغلق الباب ، سار ميجريه ناحية النافذة التى فتحها على سعتها ، على الرغم من البرد . كان مرهقا ، وكأنه انتهى من تحقيق عسير مع أحد المجرمين . لقد انتابه ، بوجه خاص ، ذلك الانحراف المزاجى الغامض الذى يشـــعر به المرء عنـــدما تضطره الظروف الى أن يطلع على بعض مظاهر من الحياة يفضل عادة أن يكون جاهلا بها .

لم يكن أمرا محزنا . لم يكن أمرا منغصا .

لم تقـــل شيئا غريبـــا · لم تكشف لمفتش المباحث عن أى أفق جديد ·

ولم يمنع هذا أن تفضى تلك المقابلة الى شبه احساس بالتقزز ·

وعلى ركن من أركان المكتب ، كانت نشرة الشرطة مفتوحة ، تعرض صورا لنحو عشرين شخصا مطلوب البحث عنهم · وجوه وحشية لأغلبهم · ورؤوس بها ندبات غيرت معالمها ··

ـ أرنست ستروبتز ، محكوم عليه غيابيا أمام محكمة «كان» ، لأنه قتل مزارعة على طريق « بينوفيل » ··

وتأشيرة بالأحمر :

ـ خطير · مسلح دائما ·

شخص يبيع حياته غاليا ·

ايه حسن ! ان ميجريه كان يفضل ذلك على هـــذه الصورة الرمادية المائعة وعلى هذه القصص العائلية ، وعلى هذه الجريمة التى لم تتضح بعد ولو أنه كان يتكهن أنا ستبلبل الأفكار ·

كانت هناك صور تلاحقه : آل مارتان ، كما كان يتصورهما ، يوم الأحد ، فى الشانزليزيه · والمعطف المطاط والشريط الحريرى الأسود حول رقبة الزوجة ··

ورن ميجريه الجرس · فظهر « جان » فأرسله ميجريه ليحضر البيانات التى كان قد طلبها عن كل من يتصلون بالمأساة ·

لم يكن فى الأمر ما يثير · لقد قبض على « نين » مرة ، مرة واحدة ، فى « مونمارتر » على اثر مداهمة قام بها رجال الشرطة ، وقد أفرج عنها بعد أن أثبتت أنها لاتعيش من الدعارة ·

أما عن كوشيه الابن ، فقد ذكرته فرقة مكافحة القمار وتحدثت عند جريدة « الموندين » التى كانت تشك فى أنه ينساق فى تهريب المخدرات · ولكن لم يثبت ضده شىء واضح ·

وباتصـــال تليفونى بشرطة الآداب ، علم أن « سيلين » التى تلقب بلوازو وولدت فى سان ـ أمون ـ موترون ، كانت معروفة

فى هذه المدينة • وكانت لديها بطاقتها وتاتى للزيارة بانتظام •
وقال رئيس الفرقة :

ـ انها ليست بالفتاة الشريرة ! انها تكتفى فى أغلب الأحيان بصديق أو صـــديقين دائمين •• ولا نقابلها الا عنـــدما تعود الى الشارع •••

ولم يكن چان ، خادم المكتب ، قد غادر الحجرة ، فراح يوجه نظرة ميجريه الى شىء ما قائلا :

ـ لقد نسيت تلك السيدة مظلتها !

ـ أنا عارف •••

ـ آه !

ـ أجل ، أنا فى حاجة اليها •

ونهض مفتش المباحث وهو يتنهد ، وراح يغلق النافذة ، واستقر فى كرسيه موليا ظهره ناحية اللهب فى الوضع الذى اعتاده عندما يكون فى حاجة الى التفكير •

***

وبعد ذلك بساعة ، كان فى استطاعته أن يلخص ذهنيا جميع المذكرات التى وصلته من الأقســـام المختلفة والتى كانت تنتشر فوق مكتبه •

أولا ، تقرير الطبيب الشرعى الذى قام بعمليـــة التشريح ، والذى يقول بأن الرصاص أطلق على بعد ثلاثة أمتار تقريبا وان الميته كانت صاعقة • وان معدة القتيل كان بها كمية ضئيلة من الكحول ، ولكنها لا تحتوى على مواد غذائية •

أما مصورو تحقيق الشخصية ، الذين كانوا يقومون بأعمالهم فى أعلى دار المحكمة ، فقد صرحوا بانهم لم يكشفوا عن أية بصمة تثير الانتباه •

وواخيرا أكد بنك ليون أن كوشيه ، وهو معروف لديه ، قد مر بالمركز الرئيسى فى الثالثة والنصف تقريبا وأخـــذ أوراقا مالية

جديدة قيمتها ثلاثمائة ألف فرنك كما هى عادته فى الليلة الأخيرة من كل شهر ٠

اذن فقد أصبح من المقرر تقريبا أن كوشيه ، لدى وصوله ، قد وضع الثلاثمائة ألف فرنك فى الخزانة ، الى جانب الستة آلاف التى توجد بها قبلا ٠

ولما كانت لاتزال لديه بعض الأعمال ، فانه لم يعد اغــــلاق الخزانة التى أسند ظهره اليها ٠

وكان الضوء فى المعمل يشير الى أنه غادر المكتب فى وقت معين، اما لكى يتفقد الأماكن الأخرى ، واما ، وهذا أكثر الأمرين احتمالا، لكى يذهب الى الأحواض ٠ فهل كانت الأموال لا تزال فى الخزانة ، عندما عاد الى مكتبه ؟

ان العقل يقول بالنفى ، لأنه فى هذه الحال ، كان لابد للقاتل من أن ينحى الجثة جانبا ، ليشد البــــاب الثقيل ويستولى على الأوراق المالية ٠

كان هذا هو الجانب الفنى فى الموضوع ٠ قاتل ـ لص أم قاتل ولص تصرفا منفردين ؟

وأمضى ميجريه عشر دقائق عند قاضى التحقيق ليبلغه بالنتائج التى توصل اليها ولما كان النهار قد انتصف منذ قليل ، فقد عاد الى بيته ، وقد استدارت كتفاه ، مما يدل على انحراف مزاجى ٠

ـ هل أنت الذى تقوم ببحث قضية ميدان الفوج ؟

هكذا سألته زوجته وكانت قد قرأت الجريدة ٠

ـ انه أنا !

وبطريقة خاصــــة ، جلس ميجريه ، وراح يتطلع الى زوجته بحنان فائض مع قدر ضئيل من القلق فى نفس الوقت ٠

كانت مدام مارتان لاتزال ماثلة أمام عينيه ، بوجهها الرقيق ، وثيابها السوداء ، وعينيها الأليمتين ٠

وتلك الدموع التى كانت تتفجر على حين فجاة ، راحت تختفى ، وكأنها قد اتقدت بلهب داخلى ، لتعاود الظهور بعد ذلك ٠٠

ومدام كوشـــيه التى تملك الفراءات .. ومدام مارتن التى لا تملك منها شيئا ..

وكوشيه الذى يمون المشتركين فى سباق فرنسا للدراجات ، وزوجته الأولى التى كان عليهـــا أن تحتفظ بالقبعة نفسها ثلاثة أعوام ..

ـ والابن .. وقنينة الاتير ، فوق منضدة السرير فى فندق بيجال .. وسيلين التى لا تنزل الشارع إلا عندما لا يكون لديها صديق منتظم لفترة من الزمن ...

ونين ...

ـ يظهر عليك عدم الارتياح ... وتبدو معتلا ... ويحسبك الناظر مصابا بالزكام .

ـ حقا ! فقد كان ميجريه يشعر بواخزات فى منخريه ، وبما يشبه الفراغ فى رأسه .

ـ ما هذه المظلة التى أتيت بها ؟ انها بشعة !..

مظلة مدام مارتان ! السيد مارتان وزوجته ، بالمعطف والثوب الحريرى الأسود ، وهما يتريضان يوم الأحد فى الشانزيليريه !..

ـ أبدا .. لا أعرف فى أية ساعة

***

أنها مشـاعر لا يمكن تأويلها :

ـ كان المرء يشعر بأن هناك شيئا غير عادى يجرى فى المنزل، شيئا يبين عن نفسه من ظاهره .

ما هذه الجلبة التى تجرى فى حانوت أكاليل الموتى المرصعة باللؤلؤ ؟ ما من شك فى أن المستأجرين يساهمون معا من أجـــل تقديم اكليل .

وما هذه النظرات القلقة التى يوجهها حلاق السيدات ، الذى يطل حانوته على الناحية الأخرى من القبو ؟

على كل ، لقد كان المنزل فى ذلك اليوم بادى الكآبة . ولـما كانت الساعة قد بلغت الرابعة ، وكان الليل قد شرع يهبط ، فقد

كان المصباح الضئيل الذي يبعث على السخرية قد أشعل تحت القبو .

وفى المواجهة ، كان حارس حديقة الميدان يوصد أبوابها . وراح خادم آل سان ـ مارك ، فى الطابق الأول ، يسدل الستائر فى تؤده ، واعيا لما يفعل .

وعندما طرق ميجريه باب المسكن ، وجـــد مدام بورسيييه ، الحارسة ، منهمكة فى قص الأحداث على محصل من دوفايل يعلق ، فوق كسوته الزرقاء سلسلة تنتهى بصليب .

ـ منزل لم يحدث به شيء على الاطلاق .. صه !.. انه مفتش المباحث ..

كانت تبدو عليها أواصر قرابة غامضة تربطها بمدام مارتان ، بمعنى انهما كانتا لا تندرجان تحت سن معينة كما انها لا تتبعان أيا من الجنسين . وانهما كانتا بائستين ، أو كانتا فى عـــداد البائسات .

كل ما هناك أن الحارسة كانت تتسم ، الى جانب الاذعان ، باذعان شبه بهيمى لمصيرها .

ـ جوجو .. ليلى .. لا تمكثا فى الطريق .. صباح الخير يا سيدى المفتش .. كنت فى انتظارك هذا الصباح .. يالها من قصة !.. رأيت فى أثنـــاء مرورى بجميع السكان أن أقوم بعمل كشف من أجل الاسهام فى شراء اكليل .. هل عرف متى تقـــام الجنازة ؟.. وبالمناسبة ، مدام سان مارك .. كما تعلم !..

أرجوك ألا تخبرها بشيء .. لقد حضر السيد سان ـ مارك صباح اليوم .. انه يشفق عليها من الانفعالات ، فى حالتها هذه ..

وفى الفنـــاء الذي يكتنفه جو من الزرقة ، كان المصباحان ، مصباح القبور والمصباح المثبت فى الحـــائط ، يرسمان خطوطا طويلة صفراء .

وسأل ميجريه قائلا :

ـ شقة مدام مارتان ؟

ـ بالطابق الثانى ، الباب الثالث ، الى اليسار بعد المنعطف ..

وتعرف مفتش المباحث على النافذة التى كان ينبعث منهـــا الضوء ، ولكن لم يكن يرتسم على الستار أى خيال .

ومن ناحية المعامل ، كانت تبلغ الآذان قعقعة الآلات الكاتبة . ووصل أحد الموزعين .

ـ أمصال الدكتور ريفيير ؟

ـ فى أقصى الفنـــاء ! الباب الأيمن ! دع أختـــك فى حالها يا جوجو !

وراح ميجريه يرتقى السلم ، وقد حمل تحت ابطه مظلة مدام مارتان . وحتى الطابق الأول ، كان البت مجددا ، فقد أعيد طلاء الجدران ، ودهنت درجات السلم .

وابتداء من الطابق الثانى ، كان هنـــاك عالم آخر ، حوائط قذرة ، وأرضية مبشورة . وكان يكسو الأبواب طلاء رمادى ردىء . وفوق هذه الأبواب كان المرء يرى تارة بطاقات زيارة مشبوكة ، وتارة لوحات بارزة من الألمنيوم .

وثمة بطاقة زيارة المائة منها بثلاث فرنكات تقول :

ـ السيد ادجار مارتان وحرمه . والى اليمين شريط مضفور ، ثلاثى اللون ، ينتهى « بشوشة » ملساء . عندما جذبها ميجريه ، رن فى فراغ المسكن جرس صغير ثم سمعت خطوات عجلى وانطلق صوت يسأل :

ـ من هناك ؟

ـ أنا ، أحمل اليك مظلتك !

وفتح الباب . كان المدخل لايعدو مترا مربعا ، على أحد جدرانه مشجب يتدلى منه المعطف المطاط ، وفى المواجهة ، باب مفتوح لحجرة تستعمل للاستقبال والطعام فى نفس الوقت ، بها آلة لاسلكى فوق صندوق .

ـ آسف لازعاجك . لقد نسيت صباح اليوم هـــذه المظلة فى مكتبى ..

ـ عجيب ! وأنا التى أعتقد أنى نسيتها فى « الاتوبيس » كنت أقول لمارتان ..

لم يبتسم ميجريه . كان قد ألف هذا الصنف من النساء اللائى يدعون أزواجهن بألقابهم .

كان مارتان موجودا ، يرتدى سروالا مخططا يلبس فوقه سترة منزلية من الجوخ البنى السميك .

ـ تفضل ، أرجوك ..

ـ لا أحب أن أزعجكما .

ـ ليس هناك ما يزعج من ليس لديهم شىء يخفونه .

قد تكون الرائحة هى السمة الأساسية التى تميز بين المساكن . كانت رائحة هذا المسكن غير نفاذة ، يطغى عليها شمع الأرضية ، والمطبخ ، والثياب القديمة .

وفى أحد الأقفاص يقفز طائر « كناريا » ، ويقذف أحيانا بقطرة ماء الى الخارج .

ـ احضر الكرسى لسيادة المفتش ..

الكرسى ! لم يكن هناك سوى كرسى واحـــد ، كرسى طراز فولتير يكسوه جلد من القتامة بحيث يبدو أسود ..

وكانت مـــدام مارتان مختلفة عما كانت عليه فى الصباح ، وراحت تغمغم قائلة :

ـ فلتتناول شيئا ما .. أجل .. مارتان ! احضر قليلا من الخمر ..

وكان مارتان ضيقا حرجا . أمن الممكن أن يكون المنزل خاليا من الشراب ؟ أمن الممكن الا يكون به غير ثمالة فى زجاجة ؟

ـ شكرا يا سيدتى ! أنا لا أشرب أبدا قبل الأكل .

ـ ولكن لديك وقتا كافيا ..

كان شيئا محزنا ! محزنا لدرجة تقنط معها أن تكون انسانا ، أن تعيش على أرض تتلألأ الشمس عليها ساعات عديدة كل يوم ، وبها طيور حقيقية مطلقة السراح !

لابد وأن هؤلاء النـــاس لايحبونَ النور ، ذلك لأن المصابيح الكهربائية الثلاثة كان يحجبها بعناية قماش ملون كثيف لاينفذ منه الا قدر ضئيل من الأشعة ٠

وطرق ميجريه خاطر ، فقال في نفسه :

ـ وبخاصة شمع الأرضية !

لأن هذا هو ما كان يطغى على الرائحة !

ومن جهة أخرى ، كانت المنضدة المصنوعة من الفرو الغليظ مصقولة كأرض أعدت للتزحلق ٠

وتصنع ميجريه ابتسامة رجل يستقبل زائرا ٠

ـ انكما تتمتعان بمشهد بديع ، اذ يطل مسكنكما على ميدان الفوج ، ذلك الميدان الذى لا مثيل له فى باريس !

كان ميجريه وهو يقول ذلك يعرف تماما أن النوافد تطل على الفناء ٠

ـ كلا ! ان أسقف شقق الواجهة فى الطابق الثانى ، شديدة الانخفاض بسبب طراز الأثاث ٠٠ وأنت تعلم أن الميدان بأكمله يقع كأثر تاريخى ٠٠ ليس لنا الحق فى أن نمسه ٠٠ ان هذا أمر يرثى له !٠٠ ها قد مرت سنوات ونحن نريد أن نقيم حماما و ٠٠٠

كان ميجريه قد اقترب من النافذة ٠ وبحركة غير مكترثة ، راح يزيح ستار خيالات الظل ٠ ثم ظل ثابتا ، متأثرا حتى أنه نسى أنه يتحدث كزائر مهذب ٠

وفى قبالته كانت توجد مكاتب كوشيه ومعمله ٠

من أسفل ، كان قد لاحظ أن هناك نوافذ من الزجاج المعتم ٠

ومن هنا ، لاحظ أنها لم تكن الا النوافذ السفلى ، أما الأخرى فكانت رائقة صافية ، تقوم الخادمات بتنظيفها مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع ٠

وفى نفس المكان الذى قتل فيه كوشيه كان السيد فيليب يظهر جليا للعيان وهو يوقع على خطابات كتبت على الآلة الـــكاتبة ،

تقدمها له أمينة سره ، واحداً واحداً • وكان الناظر يستطيع أن يميز مغلاق الخزينة •

أما باب الاتصال بين المكتب والمعمل فكان منفرجا •

ومن خلال نوافذ المعمل كانت تبدو نسوة فى قمصان بيضاء مصطفات على طول منضدة كبيرة وقد انهمكن فى رص الأنابيب الزجاجية •

كان لكل منهن عمل • فكانت الأولى تتناول الأنابيب المكشوفة فى سلة ، وتقوم الثانية بتسليمها لأحد الموظفين ، وقد أصبحت حزما كاملة التغليف والتأشير . وقصارى القول ، كانت تسلمها بضاعة معدة لتسلم للصيدليات •

ـ ومع ذلك يجب أن تشرب شيئا !

هكذا جاء صوت مدام مارتان من خلف ميجريه •

وتحرك زوجها ، وفتح خزانة فى الحائط ، واصطكت الأكواب •

ـ لا أكثر من جرعة من « الفرموت » يا سـيدى المفتش ! ربما قدمت لك مدام كوشيه « كوكتيل » ••

وندت عن مدام مارتان ابتسامة حادة ، كما لو كانت شفتاها من الدهن •

- ٥ -

المجنونة

وقال ميجريه والكأس في يده ، وقد راح يتطلع الى مدام مارتان :

ـ آه ! لو كنت نظرت من النافذة ، مساء أمس ! لكان تحقيقي انتهى ، منذ بدايته ! لأنه من المستحيل ، ألا يرى المرء ، من هنا ، كل ما يجرى فى مكتب كوشيه •

عبثا كان المرء يحاول أن يجـــد أى مقصد فى نبرة صوته ، أو فى هيئته • كان يرشـــف من كأس « الفـــرموت » فى يده وهو يثرثر •

ـ بل ولقلت ان هـــذه الحادثة تمثل حالة من أغرب حالات الشهادة من الوجهة الجنائية • اذ شاهد شخص من بعيد حادثة القتل ! ماذا أقول ؟ ان المرء مستعينا بنظارة مقربة ، يستطيع أن يرى شفاه المتحادثين واضحة الى الحد الذى يستطيع معه أن يستعيد المحادثة التى دارت بينهما ••

لم تدر مدام مارتان ماذا تظن ، فاتخـــذت موقفا متحفظا ، وارتسمت على شفتيها الشاحبتين ابتسامة جامدة •

ـ ومع ذلك فيالهول ذلك الانفعال الذى كنت ستتعرضين له ! أن تكونى فى نافذتك ، هادئة ساكنة ، وعلى حين فجأة ، ترين شخصا يهدد زوجك القديم ! ان الأمر أسوأ من ذلك ! لأن المشهد كان لابد وأن يكون أكثر تعقيـــدا • اننى أتخيل كوشيه بمفرده تماما ، غارقا فى حساباته •• ثم ينهض ويتوجه ناحية الأحواض •

وعند عودته ، كان شخص ما قد نقب فى الخزانة ، ولم يكن لديه وقت للفرار .. ومع ذلك فهناك أمر غريب ، فى هذه الحالة : وهو أن كوشيه جلس ثانية .. صحيح أنه ربمـــا كان يعرف سارقه ؟.. وتحدث اليه .. ووجه اليه اللوم، وطلب اليه أن يعيد المال ..

فقالت مدام مارتان :

ـ ولكن ، كان يجب أن أكون فى النافذة !

ـ ربما استطاع آخرون القــاء نفس النظرة من بعض النوافذ الأخرى فى نفس الطابق ؟ . . . من يقطن الى يمينكم ؟

ـ فتاتان وامهما . . . أولئك اللائى يدرن الحاكى كل مساء .

وفى تلك اللحظة دوت صرخة سبق أن سمعها ميجريه . فظل صامتا لحظة ، ثم دمدم قائلا :

ـ المجنونة ، اليس كذلك ؟

ـ صه ! . . .

أصدرتها مدام مارتان ، وهى تتوجه بخطى خرساء ناحيـــة الباب . وفتحته فجأة . فلمحا ، على ضوء الممر الردىء ، شـــبح امرأة يبتعد مسرعا .

ـ العجوز الكريهة !

دمدت بها مدام مارتان بصوت مرتفع تستطيع أن تســـمعه الأخــرى . واذ عادت اعقــابها ، وهى تتميز من الغيظ ، راحت تشرح الأمر للمفتش :

ـ انها ماتيلد العجوز : طاهية قديمة ! هل رأيتها ؟ ان المــرء ليظنها ضفدعا ضخما ! انها تسكن الحجرة المجاورة ، مع أختهــا المجنونة . وهما على درجة واحدة من الهرم والقبح ! ولم تفــادر المجنونة حجرتها مرة واحدة منذ أن نزلنا فى هذه الشقة .

ـ ولماذا تصرخ بهذه الطريقة ؟

ـ آن ! ان هذه النوبة تتملكها عندما يتركونها وحيـــدة فى الظلام . انها تخاف مثل الأطفال . انها تعوى . . . ولقد انتهى بى

الأمر الى ادراك حيلهما ... فمن الصباح الى المساء ، تظل ماتيلد العجوز تحوم فى الممرات ... ونحن دائما على ثقة من اننا سنجدها قابعة خلف أحد الأبواب ، وعندما نفاجئها فى هذا الوضع ، لا تكاد تضيق لذلك ... فتبتعد هادئة ، رابطة الجأش !... لدرجة ان المرء لا يشعر انه فى داره ، وان عليه أن يخفض صوته ، اذا أراد أن يناقش شئون الأسرة ... ولقد فاجأتها لتوى متلبسة ، اليس كذلك ؟ ايه حسنا ! اننى اراهن أنها عادت ...

ووافقها ميجريه قائلا :

ـ وضع غير لطيف ! ولكن المالك ، الا يتدخل ؟

ـ لقد فعل كل شىء لطردهن ... ولكن للأسف هناك القوانين التى تحول دون ذلك ... دون مراعاة أنه مما ينافى الصحة ، ومما ، تمجه النفوس ، أن تعيش هاتان العجوزتان فى حجرة صغيرة ! . اننى أراهن انهما لا تغسلان على الاطلاق .

وتناول مفتش المباحث قبعته .

ـ أرجو ان تغفرا لى اننى أزعجتكما . لقد حان وقت الانصراف ...

ومنذ تلك اللحظة ، تكونت لدى ميجريه صورة واضحة عن المسكن ، ابتداء من اغطية الأثاث ، حتى التقاويم التى تزين الجدران .

ـ لا تحدث ضوضاء !... ستفاجىء العجوز ...

ولم يتحقق ذلك تماما . فلم تكن فى الممر ، ولكنها كانت خلف بابها المنفرج ، كعنكبوت ضخم يتربص . ولابد وأنها ارتبكت عندما لمحت المفتش يوجه اليها تحية رقيقة عند عبوره .

***

فى وقت تناوله المشهيات ، كان ميجريه جالسا فى «السيليكت» ليس بعيدا عن البار الأمريكى حيث لا حديث الا عن السباق . وعندما اقترب منه النادل . عرض عليه صورة روجيه كوشيه الذى كان قد اخذها فى الصباح من فندق شارع بيجال .

ـ هل تعرف هذا الشاب ؟

فدهش النادل وقال :

ـ غريب ...

ـ ما الغريب ؟

ـ لقد انصرف منذ أقل من ربع ساعة ... كان جالسا الى هذه المائدة ! . ولم يكن ليجذب انتباهى ، اذ لم يكن قد قال لى ، بدلا من ان يحدد لى نوع المشروب الذى كان يريده .

ـ نفس المشروب الذى قدمته لى بالأمس !

غير اننى لم اكن اذكر اننى رايته على الاطلاق .. فقلت له :

ـ هل تسمح فتذكرنى به ؟

ـ واحد جان ـ فيز .

ولقد عجبت لذلك كثيرا ! لاننى واثق من اننى لم اقدم هذا المشروب مساء امس !

ولبث بضع دقائق ، ثم انصرف ... ومن الغريب انك رحت تعرض على صورته منذ وقت قصير .

لم يكن ثمة غرابة على الاطلاق . لقد اراد روجيه ان يقيم الدليل على انه كان فى « السيليكت » عشية الأمس ، كما صرح بذلك لميجريه . وقد لجأ فى سبيل ذلك الى حيلة ماهرة ، ولم يخطىء الا حين اختار مشروبا قليل الشيوع . ومرت دقائق ، ثم دخلت نين ، عابسة النظرة ، وجلست الى أقرب مائدة من البار ، وما ان لمحت المفتش ، حتى نهضت ، وترددت ، ثم تقدمت نحوه وسألته قائلة :

ـ هل تريد ان تتحدث الى ؟

ـ ليس هذا بالضبط . ولكن ، مع ذلك ! أحب أن أوجه اليك سؤالا .

ـ انت تحضرين الى هنا كل مساء ، أليس كذلك ؟

ـ كان ريمون يحدد هذا المكان دائما للقائنا !

ـ هل تعتادين الجلوس في مكان محدد ؟
ـ هناك ، حيث جلست عند دخولي ...
ـ وهل كنت تجلسين هناك بالأمس ؟
ـ أجل ، لماذا ؟
ـ الا تذكرين انك رايت صاحب هذه الصورة ؟
وتأملت صورة روجيه ، ثم دمدت قائلة :
ـ انه جاري في الفندق .
ـ أجل ، ابن كوشيه ...
فراحت عيناها تحملقان ، وقد اضطربت لهذا التـــوافق ؟ وساءلت نفسها عما يخبئه من أمور .
ـ لقد زارني ، صباح اليوم ، بعد انصرافك بقليل ... كنت عائدة من « المولان بلو » .
ـ ماذا كان يريد ؟
ـ لقد سألني قرصا من الاسبرين من أجل « سـيلين » التي كانت مريضة ...
ـ وفي المسرح ؟ هل اقاموك بعمل ؟
ـ على أن أكون هناك هذا المســاء .. لقد أصيبت احــدى الراقصات ... واذا لم تتحسن حالها فسأحل محلها ، وربمـــا تعاقدوا معي نهائيا ...
ثم خفضت صوتها لكي تكمل الحديث :
ـ المائة فرنك معي ... هات يدك ...
وكانت هذه الحركة بمثابة كشاف أبان ملامح لنفسية بأسرها ، كانت لا تريد أن تناول ميجريه المائة فرانك علانية ! كانت تخشى أن تسبب له حرجا : فكانت تقبض على الورقة في راحة يدها وقــد طوتها دقيقا ! ثم ناولته اياها كما لو كانت تناولها لمعشق .
ـ اشكرك افقد كنت طيبا معي ...
كان المرء يشعر بفتورها . كانت تتطلع حولها دون أن تعـــير

انتباها لمن يروحون ويجيئون . ومع ذلك فقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة ، ونوهت قائلة :

ـ ان مدير الفندق ينظر الينا ... انه يسائل نفسه عن سبب وجودى معك ... ويبدو انه يظن اننى عثرت على بديل « لريمون » ... ستعرض نفسك للشبهة !

ـ هل ترغبين فى تناول شىء ؟

فأجابت فى السر :

ـ متشكرة ! لو احتجت الى مصادفة ... انا فى «المولان بلو»، اسمى « اليان » ... وانت تعرف مدخل الفنانين ، شارع « فونتين » ؟...

***

لم يكن فى الأمر مشقة كبيرة . فقد ضغط ميجريه على جرس باب شقة شارع هوسمان ، قبل موعد العشاء بدقائق . كانت رائحة زهر الاقحوان الكئيبة تسود الجو ابتداء من المدخل . فراحت الخادمة تفتح الباب ، وهى تسير على اطراف اصابعها .

لقد ظنت ان المفتش يريد ببساطة ان يقدم بطاقته ، فقادته دون ان تقول كلمة الى حجرة الميت ، التى يجللها السواد ، وعند المدخل ، وجد عديداً من بطاقات الزيارة فوق طبق كبير من طراز لويس السادس عشر .

كان الجسد قد اودع الصندوق ، الذى كان يختفى تحت الأزهار .

وفى احد الأركان ، يرى الناظر رجلا وجيها يلبس الحداد ، راح يومىء الى ميجريه براسه ايماءة خفيفة .

وفى مواجهته ، كانت هناك امراة فى نحو الخمسين من عمرها ، ذات ملامح غليظة ، تهندمت فى ثياب ريفية ، تجثو على ركبتيها . واقترب المفتش من الرجل :

ـ هل استطيع ان ارى مدام كوشيه ؟

ـ سأسأل أختى عما اذا كان فى استطاعتها مقـــابلتك ... سيادتك ؟ ...

ـ ميجريه ! مفتش المباحث المكلف بالتحقيق ...

ولبثت الفلاحة مكانها . ومرت عدة لحظات ، عاد الرجل على اثرها وقاد ضيفه خلال الشقة .

وبخلاف رائحة الزهور التى كانت تسود المـكان كله ، كانت الحجرات محتفظة بطابعها المعتاد. كانت شقة جميلة من طراز أواخر القرن الماضى ، شأن غالبية شقق شارع هوسمان . حجـــــرات واسعة ، والأسقف والأبواب افرط فى تزيينها بعض الشىء .

واثاث طراز كلاسيكى . وفى حجرة الاســتقبال ، علقت ثريا اثرية من البلور ، ما أن يسير المرء حتى تدق .

كانت مدام كوشيه موجودة ، يحيطها ثلاثة اشـــخاص قامت بتقديمهم . أولا ، الرجل الذى يرتدى الحداد قدمته قائلة :

ـ أخى ، هنرى دورومى ، محامى فى المحكمة ..

ثم رجل متقدم فى السن :

ـ عقيد دوروموى ، عمى ...

وأخيرا ، امرأة فضية الشعر :

ـ ماما ...

كانوا جميعا ، وقد ارتدوا الحداد ، غاية فى الوجاهة . ولم يكن الشاى قد رفع من فوق المائدة . وكانت هناك بقايا «توست» وحلوى .

ـ تفضل بالجلوس ...

ـ سؤال ، لو سمحت. هذه السيدة التى فى حجرة الميت...

فقالت مدام كوشيه :

ـ انها أخت زوجى ... وصلت صباح اليوم من « ســـانت آمون » ...

لم يبتسم ميجريه . ولكنه ادرك السبب . كان يشعر تمـاما

انهم لا يحبون لاحد أن يشهد عائلة كوشيه لدى وصولها ، في ثياب ريفية او برجوازية .

وكان هناك أقارب الزوج « آل كوشيه » وأقارب الزوجة « آل دورموى » . فآل دورموى يتسمون بالأناقة ، والرزانة وجميعهم يرتدون فعلا ملابس الحداد . اما آل كوشيه ، فلم يصل منهم الا هذه المرأة التى تضغط صديريتها الحريرية على ما تحت أبطيهـــا بشدة .

ـ هل استطيع أن أقول لك كلمتين على انفراد ، يا سيدتى ؟

فاستأذنت من أفراد عائلتها ، الذين كانوا يريدون مغـــادرة المكان .

ـ البثوا ، ارجوكم ... سنذهب الى الركن الأصغر ...

لقد بكت ، لاشك فى ذلك ، ثم ذرت وجهها بالمساحيق ، وكان فى استطاعة الناظر اليها ان يدرك بصعوبة أن جفنيها متخنتـــان قليلا . وكان صوتها غائبا بفعل اعياء حقيقى .

ـ الم تتلق اليوم زيارة غير منتظرة ؟

فرفعت راسها ، على مضض :

ـ كيف عرفت ؟... اجل... عنـــد حلول العصر ، جاءنى ابن زوجى ...

ـ كنت تعرفينه قبلا ؟

ـ معرفة طفيفة ... كان يزور زوجى فى مكتبه ... وفوق ذلك فقد صادفناه مرة فى المسرح ، وقام ريمون بتقـديم احدنا للآخر ...

ـ وفيم كانت زيارته ؟

كانت ضيقة ، فأشاحت بوجهها :

ـ كان يريد ان يعرف ما اذا كنا عثرنا على وصية ... وقـد طلب الى ايضا ان ادله على رجل اعمالى ، حتى يتحدث اليه بشأن الاجراءات ...

وتنهدت ، وحاولت ان تجد عذرا لهذه الخساسة .

ـ هذا من حقه ! اعتقد أن نصف الثروة تؤول اليـــه ، وانا لا انوى ان اهضمه هذا الحق .

ـ هل تسمحين لى بتوجيه بعض الأسئلة الفضـــولية ؟... عندما تزوجت كوشيه ، هل كان غنيا ؟

ـ أجـــل ··· أقل من اليوم ، ولكن أعماله كانت قـــد بدأت تروج ...

ـ زواج حب ؟

فندت عنها ابتسامة غبشاء .

ـ لقد تقابلنا فى « دينار » ... وبعد ثلاثة أسابيع ، سـألنى عما اذا كنت أوافق على ان أصبح زوجة له ... واسـتعلم اهلى عنه ...

ـ وهل كنت سعيدة ؟

ونظر فى عينيها ، واصبح فى غنى عن اجابتهـــا . وآثر أن يدمدم قائلا :

ـ كان ثمة فارق فى السن ... كان كوشيه مشغولا بأعماله باختصـــار ، لم يكن بينكما حب كبير ··· أصحيح هـــذا ؟··· كنت تديرين منزله ... وكانت لك حياتك ، وكانت له حياته...

ـ اننى لم أوجه له اللوم على الاطلاق ! لقـــد كان رجلا يتمتع بحيوية عظيمة ، وفى حاجة الى حياة كثيرة الحركة ... ولم اكن لأحب ان أقف فى طريقه .

ـ الم تشعرى بالغيرة ؟

ـ فى البداية ... ثم تعودت على ذلك ... واعتقد أنه كان يحبنى كثيرا .

كانت على قـــدر غير قليل من الجمال ، ولكن دون تألق أو احتداد . ملامح دقيقة الى حد ما ، وجسـد بض . واناقة معتدلة. لابد وانها كانت رائعة عندما قامت بتقديم الشاى الى صديقاتها ، فى حجرة الاستقبال الفاترة المريحة .

ـ هل كان زوجك يحدثك كثيرا عن زوجته الأولى ؟

عندئذ جمدت حدقتاها . وحاولت أن تخفى غضبها ، ولكنها ادركت ان الأمر لا ينطلى على ميجريه ، فراحت تقول :

ـ ليس على أنا أن ...

ـ آسف . فنظرا لظروف الجريمة ، لا يمكن ان يكون هنـاك مجال للتلطف فى الحديث ...

ـ ألا ترتاب فى أحد ؟...

ـ أنا لا أرتاب فى أحد . اننى أحاول أن أكون صورة عن حياة زوجك ، والمحيطين به ، والأعمال والحركات التى قام بها فى ليلته الاخيرة . هل كنت تعلمين أن تلك السيدة تسكن نفس العمـارة التى توجد بها مكاتب كوشيه ؟

ـ اجل ! لقد أخبرنى بذلك ...

ـ وكيف كان يتحدث عنها ؟

ـ كان يحقد عليها ... ثم خجل لهذا الاحساس ، وكان يزعم انها فى الواقع تعتبر شقيه ...

ـ ولماذا شقية ؟

ـ لانه لم يكن هناك ما يشبعها ... ثم ...

ـ ثم ؟

ـ انك تدرك ما أريد ان أقوله ... انها نفعية الى حد كـبير ... وباختصار ، لقد هجرت « ريمون » لانه لم يكن يكسب مالا كافيا ... وبعد ذلك ، نجده غنيا ... وتكون هى زوجة موظف بسيط ؟...

ـ ألم تحاول أن ...

ـ كلا ! لا اعتقد انها طلبت منه مالا على الاطلاق . صحيح أن زوجى ما كان ليطلعنى على ذلك . كل ما اعرفه لن مقابلته لها فى ميدان الفوج كانت تسبب له ألما . واعتقد انها كانت تتخـذ التدابير لكى تكون فى طريقه . لم تكن تتحدث اليه ، ولكنها كانت تنظر اليه بازدراء .

لم يستطع المفتش ان يكتم ابتسامة ، وهو يتصور اللقاءات التى كانت تتم تحت القبو : كوشيه ينزل من العربة ، نضيرا موردا ، ومدام مارتان ، متعاظمة ، بقفازها الأسود ومعطفها وحقيبة يدها ، ووجهها السام ...

ـ اهذا كل ما لديك من معلومات ؟

ـ ولو استطاع لغير مكان عمله ، ولكن من الصعب أن يعثر المرء في باريس على معامل ...

ـ بالطبع ، الا تعرفين اعداء لزوجك ؟

ـ أبدا ! كان يتمتع بحب الجميع ! كان طيبا للغاية ، طيبا لدرجة تثير السخرية ... لم يكن ينفق ما يجمع من اموال : كان يبعثرها ... وعندما كنا نلومه على ذلك ، كان يجيب بأنه ظل سنوات يجمع المليم فوق المليم ، ليبدو فى النهاية مبذرا ...

ـ وهل كان يزور عائلتك كثيرا ؟

ـ نادرا ! فليست العقلية واحدة ، أليس كذلك؟...ولا الأذواق متفقة .

وبالفعل ، وجد ميجريه صعوبة فى تصوره لكوشيه فى حجرة الاستقبال مع المحامى ، والعقيد والأم التى تنم حركاتها عن كبرياء .

كل هذا من اليسير ادراكه .

شاب دموى ، قوى ، سوقى ، يخرج من لاشىء ، يقضى ثلاثين عاما من حياته سعيا وراء الثروة ، ولا يقتات الا من لحوم الابقار المصابة بالكلب ... ويصبح غنيا . وفى « دينار » يتوصل الى مجتمع لم يقبله على الاطلاق . فتاة بمعنى الكلمة ، عائلة برجوازية ... شاى ، و « بيتى فور » وتينس ، وصحاب .

تزوج ! لكى يبرهن لنفسه أن كل شىء أصبح جائزا له منذ الآن ! لكى تكون له حياة داخلية كأولئك الذين لم يطلع عليهم الا من الخارج !

تزوج أيضا لانه تأثر بهذه الفتاة العاقلة المؤدبة ...

فكانت شقة شارع هوسمان ، بما فيها من أشياء تقليدية ...

كل ما هنالك ، أنه كان فى حاجة الى الانطلاق خارج البيت ، ورؤية اناس آخرين ، والتحدث اليهم دون تحفظ ... والى الحانات ، والبارات ...

ثم كان فى حاجة الى نساء أخريات .

كان يحب زوجته طبعا ! وكان معجبا بها ! وكان يحترمها ! وكانت هى تؤثر فيه .

ولكن من اجل هذا السبب الأخير كان فى حاجة الى نساء ساءت تربيتهن ، على شاكلة « نين » لينطلق معهن على سجيته .

وتراقص سؤال على شفتى مدام كوشيه ، كانت تتردد فى توجيهه . ومع ذلك ، فقد عقدت عزمها وهى تتطلع الى مكان آخر :

ـ أريد أن أسألك عما اذا .. الأمر حساس .. اعذرنى ..

كانت له صديقات ، أنا اعرف ذلك .. فهو لم يكن يكتم ذلك ـ ولا يكاد ! الا عن حرص ..

اننى أريد أن اعرف ما اذا كان سينتج عن ذلك مضايقات ، وفضائح ..

كانت بلا شك ، تتصور عشيقات زوجها كاولئك العاهرات اللاتى تتحدث عنهن الروايات ، أو كنجوم السينما !

ـ لا تخشى شيئا !

ابتسم لها ميجريه وهو يستعيد صورة نين الصغيرة ، بوجهها القروى ، وحفنة المجوهرات التى أودعتها بنك التسليف . عصر اليوم نفسه .

ـ ألن يكون من الضرورى أن ؟..

ـ كلا ! لن يكون هناك اى تعويض !

وعجبت لذلك كثيرا ، وربما اغتمت لذلك قليلا ، لأنه اذا كانت

هؤلاء النساء لا تطالبن بشيء ، فذلك لأنهن يحتفظن لزوجها بنوع من الود ! وكذلك هو بالنسبة لهن .

ـ هل حددتم موعد الجنازة ؟

ـ لقد تكفل أخى بهذا الأمر .. وستقام يوم الخميس ، فى سان ـ فيليب ـ دى ـ رول ..

وبلغت الأسماع أصوات تأتى من حجرة الطعام المجـــاورة . أو كان هذا بالطبع ايذانا بأن تهيأ لطعام العشاء ؟.

ـ لم يبق أمامى الا أن أقدم لك الشكر ، وان أستأذنك فى الانصراف ، مكررا أسفى ..

وبينما كان يهبط شارع هوسمان سائرا على قدميه ، فوجىء بنفسه يدمدم قائلا وهو يحشو غليونه :

ـ كوشيه أيها الجليل !

وجد نفسه يقول ذلك كما لو كان كوشيه هذا صديقا قديما له . كان منفعلا لدرجة الذهول لكونه لم يعرفه الا ميتا .

كان يبدو له انه يعرفه معرفة تامة من جميع النواحى .

أمن الممكن ان يكون ذلك بسبب النسـاء الثلاث ؟

الأولى ، ابنة الحلوانى ، التى تقطن فى « نانتير » ، والتى تأرق لأن زوجها قد يظل أبدا بلا مهنة محترمة .

ثم فتاة « دينار » ، وما حظى به كوشيه من اشباع ضـئيل لكبريائه ، اذ أصبح نسيبا لعقيد .

و « نين » .. ولقاءات « اليليكت » .. وفندق بيجال ..

والابن الذى كان يأتيه طالبا المـال ! ومدام مارتان التى كانت تتخذ التدابير لتقابله تحت القبو ، وربما أملا منها فى مضايقته عن طريق تأنيب الضمير ..

أعجب بها من نهاية ! وحيد تماما فى المكتب الذى يأتيه لماما ! متكىء الى الخزانة المفتوحة ، ويداه فوق المنضدة ..

ولم يلمح احد شيئا .. والحارسة ، وهى تمر بالفناء ، كانت تراه فى نفس المكان خلف الزجاج الكثيف ..

ولكن الذى يقلقها بنوع خاص ، هى مدام سان ــ مارك التى كانت تلد .. والمجنونة التى راحت تصرخ بشدة ! وبمعنى آخر ، ماتيلد العجوز التى راحت تتربص خلف احد ابواب الممر وهى تتعمل اللباد .

والسيد مارتان ، فى معطفه المطاط ، ينزل وينقب عن قفازه قرب أوعية القمامة .. ثمة شىء أكيد : وهو أن شخصا يملك الآن الثلاثمائة والستين ألف فرنك المسروقة ! وأن شخصا قام بالقتل !..

ــ الرجال جميعهم أنانيون !.. قالتهــا مدام مارتان بمرارة ووجه يقطر الما .

أهى التى معها الثلاثمائة والستون ألف فرنك التى قام بتسليمها بنك تسليف ليون ؟ أهى التى تملك المال ، المال الكثير ، حزمة كاملة من الأوراق المالية الكبيرة تمثل سنوات من الراحة بغير اهتمــام بالغد ولا بالمعاش الذى يؤول لها بموت مارتان ؟

أهو روجيه ، بجسده الأملس ، الذى استنفده الاتير وسيلين التى التقطها من الطريق لكى يخبلها معه فى سرير الفندق الرطب ؟

أهى نين ، أم مدام كوشيه ؟

وعلى كل ، هناك مكان كان من الممكن أن نرى منه كل شىء : مسكن آل مارتان .

وهناك امرأة تحوم فى البيت ، تلصق اذنها بكل الأبــواب ، وتجر نعليها فى الممرات .

وحدث ميجريه نفسه قائلا :

ــ يجب أن أقوم بزيارة ماتيلد العجوز !

ولكنه عندما بلغ ميدان الفوج ، صباح اليوم التالى ، راحت الحارسة التى كانت تفرز البريد « كومة كبيرة لمعمل الامصال ، وبضع خطابات فقط لبقية السكان » توقفه !

ــ هل أنت صاعد الى آل مارتان ؟.. لست ادرى ما اذا كنت

تحسن الصنع . فقد كانت مدام مارتان الليلة تقاسى من مرض فظيع .. واضطررنا للجوء الى الطبيب .. ان زوجها كالمجنون ..

كان الموظفون يعبرون الفناء ، فى طريقهم لاستلام أعمالهم فى المعامل والمكاتب ، وكان الخادم ينفض البساط فى نافذة بالطابق الأول .

وثمة صراخ طفل وليد واغنيـــة شعبية ترددها مرضعة فى رتابة .

- ٦ -

حرارة أربعون درجة

صه ! .. لقد نامت .. ومع ذلك . أدخل ..

وغاب السيد مارتان ، راضيا . راضيا أن يدع مسكنه الذى تسوده الفوضى على مرأى من الغريب ، راضيا أن يبدو هو نفسه بدون هندمة أو تزين وقد تدلى شارباه ، الضاربان الى الاخضرار ، مما يدل على أنه تعود تخضيبهما .

لقد ظل طوال الليل ساهرا . كان منهكا ، لايصدر عنه رد فعل على الاطلاق . وعلى أطراف أصابعه ، راح يوصد الباب الذى يوصل الى حجرة النوم ، ويرى الناظر منه قائم السرير وطستا موضوعا على الأرض .

ـ هل أخبرتك الحارسة .

كان يهمس ، ونظراته القلقة مصوبة ناحية الباب . وفى نفس الوقت ، راح يطفىء موقد الغاز الذى كان يسخن فوقه كمية من القهوة .

ـ فنجان صغير ؟

ـ شكرا .. لن ازعجكم كثيرا .. لقد آثرت المجىء للسؤال عن مدام مارتان .

ـ أنت لطيف للغاية !

قالها مارتان باقتناع .

كان فى الحقيقة لا يرى فى ذلك سوء قصد على الاطلاق

لقد كان من الاضطراب بمكان حتى أنه فقد كلّ حاسة للنقد . وفضلاً عن ذلك ، فهل كان يتمتع بهذه الحساسة قبلا ؟

ـ ما افظعها ، تلك الأزمات !. هل تسمح لى بتناول قهوتى فى حضرتك ؟..

واضطرب لما وجد أن حمالات سرواله تصطك بسمانتى ساقيه ، فأسرع يصلح من زينته ، ورفع عن النضد زجاجات أدويـة كانت تتحرك .

ـ هل تنتاب هذه الأزمات مدام مارتان كثيرا ؟

ـ كلا .. وبخاصة هذا النوع العنيف !.. انها عصبية الى حد بعيد ..

يبدو أنها عندما كانت فتاة كانت تنتابها أزمات عصبية كل اسبوع ..

ـ والآن ايضا ؟

فرمقه مارتان بنظرة كلب مضروب ، وتجرا فصرح قائلا :

ـ انا مضطر لمهاودتها .. فما أن تواجهها معارضة بسيطة ، حتى تقع فريسة لهيجان شديد !

كانت هيئته بنوع خاص مدعاة للسخرية ، بمعطفه المطاط ، وشاربيه المشمعين ، وقفازه الجلد . كان صورة كاريكاتورية لموظف صغير مُغرور .

اما الآن فقد زال لون شعره ، وبدت عيناه عليلتين . لم يكن لديه وقت لكى يغتسل . وكان لا يزال مرتديا قميص النـوم ، تحت سترة قديمة .

كان يبدو رجلا رضى الخلق . وكان الناظر يذهل اذ يدرك انه يبلغ من العمر خمسين عاما على الاقل .

ـ هل تعرضت لما ضايقها ، مساء أمس ؟

ـ كلا .. كلا ..

كان مذعورا ، ينظر حواليه فى فزع .

ـ الم تستقبل احدا ؟.. ابنها ، مثلا ؟..

ـ كلا !.. وصلت انت . ثم تناولنا عشاءنا .. ثم ..

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء .. لست أدرى . لقد حدث هذا من تلقاء نفسه .. فهى حساسة الى حد بعيد .. لقد لاقت فى حياتها كثيرا من المصائب !..

هل كان يعتقد فعلا فيما يقول ؟ كان ميجريه يشعر أن مارتان يتحدث لكى يقنع نفسه .

ـ باختصار ، أليس لك ، شخصيا ، رأى فى هذه الجريمة ؟

فترك مارتان الفنجان الذى كان بيده يسقط على الأرض . ترى اكانت أعصابه مريضة ، هو الآخر ؟

ـ ولماذا يكون لى رأى ؟.. أقسم لك .. لو كان لى رأى ، لـ..

ـ انت ؟.

ـ لست ادرى .. شيء فظيع !.. وبالذات فى وقت تكثر فيه أعمالنا فى المكتب .. لم يكن لدى وقت حتى لكى أخبر رئيسى ، هذا الصباح ..

ومر بيده النحيلة فوق جبينه ، ثم شرع يلتقط قطع الخزف، وبحث طويلا عن خرقة ليجفف الأرضية .

ـ لو استمعت لى ، لما بقينا فى هذا البيت ..

كان خائفا ، كان هذا واضحا . كان منحلا من الخوف . ولكن ما مبعث هذا الخوف ، ومن يا ترى مصدره ؟

ـ انت رجل شهم ، اليس كذلك يا سيد مارتان ؟ والرجل النزيه ..

ـ لقد خدمت اثنين وثلاثين عاما و ..

ـ اذن ، لو كنت تعرف شيئا يمكن أن يساعد العدالة ، فى الكشف عن الجانى ، فمن واجبك أن تخبرنى به ..

الن تصطك اسنانه ؟

ـ كنت أقول بالتأكيد .. ولكنني لا أعرف شيئا .. وأنا نفسى أريد أن أعرف .. فليست هذه حياة ..

ـ ما رأيك فى ابن زوجتك ؟

فاستقرت من مارتان على ميجريه نظرة متعجبة .

ـ روجيه ؟.. انه ..

ـ شخص منحرف ، أجل !

ـ ولكنه ليس شريرا ، اقسم لك .. انها غلطة أبيه .. كما تردد زوجتى ذلك دائما ، فلا يجب أن نعطى الفتيان مثل هذه الأموال الكثيرة .. وهى محقة فى ذلك ! وأنا أعتقد مثلها أن كوشيه لم يكن يأتى ذلك عن طيبة قلب ، ولا عن حب لابنه الذى لم يكن يكترث به .. كان يفعل ذلك ليتخلص منه ، ليكون على وفاق مع ضميره ..

ـ ضميره ؟.

فاحمر وجه مارتان ، وازداد ارتباكه .

ـ لقد أخطأ نحو « جولييت » ، أليس كذلك ؟

قالها مارتان بصوت أكثر خفوتا .

ـ جولييت !

ـ زوجتى .. زوجته الأولى .. ماذا فعل من أجلها ؟. لا شىء .. لقد عاملها معاملة الخادمات . ومع ذلك فهى التى اعانته فى الأوقات العصبية .. وبعد ذلك ..

ـ لم يعطها شيئا ، طبعا !.

ولكنها كانت قد تزوجت من جديد ..

فاصطبغ وجه مارتان بلون أرجوانى . كان ميجريه يتطلع اليه متعجبا مشفقا لأنه كان يدرك أن هذا الرجل الطيب لا دخل له فى هذه القضية المذهلة . ان كل ما يفعله هو ترديد لما يمكن أن يكون قد سمعه من زوجته مائة مرة .

كان كوشيه غنيا ! وكانت هى فقيرة !. اذن ..

ولكن المفتش راح يصغى السمع .

ـ الم تسمع شيئا ؟

ولزما الصمت برهة . فادركا نداء غير واضح ياتى من الحجرة المجاورة . فراح مارتان يفتح الباب ، فسمع مدام مارتان تسأل قائلة :

ـ ماذا تقص عليه ؟ .

ـ لكن .. اننى ..

ـ انه المفتش ، اليس كذلك ؟.. ماذا يريد ثانية ؟.

لم يكن ميجريه يراها . وكان الصوت صوت انسان راقد ، بلغ منه الارهاق مبلغا بعيدا ، ولكنه مع ذلك يحتفظ برباطة جأشه .

ـ لقد اتى المفتش ليسأل عنك ..

ـ دعه يدخل .. انتظر ! ناولنى منشفة مبلله والمرآة . والماشطة

ـ ستتضايقين ثانية ..

ـ امسك المرآة معتدلة !.. كلا ! دعها أفضل .. انك لست بقادر على أن ... أرفع هذا الطست !.. آه ! الرجال .. ما أن تغيب الزوجة حتى يصبح البيت مثل الحظيرة .. دعه يدخل الآن .

كانت الحجرة مثل حجرة الطعام ، عابسة كئيبة ، قليلة الأثاث ، مع افراط فى الستائر القديمة ، والأقمشة البالية ، والسجاجيد الرخيصة التى زالت عنها ألوانها . ومن عند الباب شعر ميجريه بنظرة مدام مارتان مصوبة نحوه ، هادئة ، حصيفة بطريقة عجيبة .

وعلى صفحة الوجه المشدود ، شهد ابتسامة مريض متملقة . قالت :

ـ لا تلق بالا .. كل شىء فى فوضى شنيعة !.. وذلك بسبب تلك الأزمة ..

ونظرت أمامها فى اكتئاب .

ـ ولكننى فى حال افضل .. فيجب أن أشفى غدا ، من اجل الجنازة .. هل ستقام غدا فعلا ؟.

ـ اجل ، ستكون غدا . انت تتعرضين لهذه الأزمات ..

ـ كانت تنتابنى وأنا طفلة .. ولكن اختى ..

ـ هل لك أخت ؟

ـ لى أختان .. لا تعتقد فيما ليس له وجود .. كانت الصغرى تتعرض هى الأخرى للازمات .. وتزوجت .. وكان زوجها انسانا حقيرا . وذات يوم انتهز احدى هذه الأزمات وطالب بتحويلها الى مستشفى الأمراض العقلية .. فماتت ، بعد اسبوع .

ـ لا تنفعلى !.

قالها متوسلا اليها وهو لا يدرى أين يجلس ولا أين ينظر .

فسأل ميجريه قائلا :

ـ مجنونة ؟.

فقست ملامح المرأة ، وغدا صوتها رديئا .

ـ أى أن زوجها أراد أن يتخلص منها !.. وبعد مضى أقل من ستة أشهر تزوج من أخرى .. والرجال جميعا هم الرجال . ونحن نخلص لهم ، ونقتل انفسنا من أجلهم ..

فتنهد الزوج قائلا :

ـ اتوسل اليك !

ـ انا لا اقـــول ذلك من اجلك ! مع انك لست افضل من الآخرين ..

وشعر ميجريه على حين بغتة بما يشبه تيارات من الحقـــد . كان ذلك عابرا .

كان ذلك غامضا . ومع ذلك فقد كان على ثقة من انه لم يخطىء فى ظنه .

ثم أردفت تقول :

ـ وهذا لا يمنع اننى لو لم أكن موجودة ..

اليس في صوتها تهديد ؟ كان الرجل يتحرك في الفراغ . ولكي يحافظ على اتزانه ، راح يعد جرعة من الدواء يسكبها واحدة واحدة في كوب .

ـ لقد قال الطبيب !

ـ انني أسخر من الطبيب !

ـ ومع ذلك فيجب .. خذى ! اشربى ببطء .. انه ليس رديئا فنظرت اليه ، ثم نظرت الى ميجريه ، واخيرا شربت ، وهى تهز كتفيها مستسلمة .

ـ الم تأت حقا الا لتسأل عنى ؟

قالتها بحذر .

ـ كنت في طريقى الى المعامل ، عندما اخبرتنى الحارسة ..

ـ هل اكتشفت شيئا ؟

ـ ليس بعـد ..

فأغلقت عينيها ، لتظهر تعبها . وتطلع مارتان الى ميجريه وهو ينهض :

ـ واخيرا اتمنى لك شفاء عاجلا .. انك فعلا في حال أحسن ..

وتركته ينصرف . ومنع ميجريه مارتان من توصيله للباب .

ـ ابق الى جوارها ، أرجوك .

يا للشخص المسكين ! لعله كان خائفا من البقاء الى جوارها ؟ ولعله كان يتعلق بالمفتش ، لأنه عندما يكون هناك ثالث فان الأمر يكون اخف وطأة .

ـ سترى ان الأمر لا يعدو شيئا ..

وبينما كان يعبر حجرة الطعام ، سمع صوت شخص يهرب في الممر . ثم لحق بماتيلد العجوز ، في اللحظة التى كانت تعـود فيها الى حجرتها .

ـ صباح الخير ، يا سيدتى ..

فتطلعت اليه فى خوف ، دون أن تجيب ، ويدها على « اكرة الباب » .

كان ميجريه يتحدث بصوت خافت • اذ كانت عينه على اذن مدام مارتان التى تصغى السمع ، فقد كان من الممكن أن تنهض بدورها فتنصت عند الأبواب •

ــ انا ، كما تعلمين ، مفتش المباحث المكلف بالتحقيق ..

كان يدرى مقدما أنه لن يخرج بشىء من هذه المرأة . ذات الوجه الهادى الى الحد الذى أصبح معه قمريا •

ــ ماذا تريد منى ؟.

ــ أريد فقط أن أسألك عما اذا كان لديك ما تريدين قوله لى .. هل تسكنين هذا المنزل منذ زمن بعيد ؟..

ــ منذ اربعين عاما !

قالتها بخفاف .

ــ انت تعرفين جميع السكان ..

ــ انا لا اتحدث الى احد !

ــ اعتقدت أنك ربما تكونين قد رايت شيئا او سمعت شيئا .. ففى بعض الأحيان ، يستطيع دليل بسيط أن يجعل العدالة تسير فى الطريق السليم ..

كانت ثمة حركة ، داخل الحجرة • غير أن العجوز كانت تتشبث بالباب الموصد فى عناد .

ــ الم ترى شيئا ؟.

لم تجب

ــ ولم تسمعى شيئا ؟

ــ انك تحسن صنعا ، اذا قلت للمالك أن يركب لى جهاز الغاز ..

ــ الغاز ؟

ـ كلَ من فى المنزل لديهم الفاز . أما انا فلانه ليس من حقه أن يرفع أجر مسكنى ، فهو يمنعه عنى ٠٠ انه يريد أن يطردنى !٠٠ انه يفعل كل شىء لكى أذهب ٠٠ ولكنه سيذهب قبلى ، الى القبر !٠ وتستطيع أن تنقل له ذلك عنى ٠٠.

وفتح الباب قليلا ، بقدر يبدو معه مستحيلا على المرأة الضخمة أن تمر من خلاله . ثم اغلقت دونها ، ولم يعد يبلغ الآذان الا ضوضاء مكتومة فى الحجرة .

***

ـ بطاقتك لو سمحت ؟

وتناول الخادم ، الذى كان يرتدى صديرية مخططة ، البطـاقة التى قدمها له ميجريه ، وغاب فى الشقة التى كانت تفيض نوراً ، بفضل النوافذ التى كانت ترتفع الى خمسة أمتار ، الشىء الذى قلما نصادفه فى غير عمارات ميدان الفوج وجزيرة « سان ـ لوى » ٠

كانت الحجرات فسيحة . ومن مكان ما فى الشقة كان يأتى صوت مكنسة كهربائية ٠ وثمة مرضعة فى « بلوزة » بيضاء ، وغطاء رأس أزرق ، تنتقل من حجرة الى حجرة ، وهى ترمق الزائر بنظرة فضول ٠٠

وجاء صوت قريب يقول :

ـ ادخل المفتش ٠٠

كان السيد سان ـ مارك بمكتبه ، فى عباءة البيت ، بشعره الفضى الذى عنى بتصفيفه ٠ وراح أولا يغلق بابا سنحت الفرصة لميجريه أن يلمح من خلاله سريرا من طراز كلاسيكى ، ووجه امرأة على وسادة .

ـ أجلس ، أرجوك .. طبعا ، انت تريد أن تتحدث معى فى ذلك الموضوع المهول ، موضوع كوشيه ٠٠

وعلى الرغم من سنه ، فقد كان يوحى بالقوة ، والصحة . أما الشقة فكان يسودها جو بيت سعيد ، كل ما فيه منير وبهيج .

ـ لقد تأثرت لهذه المأساة ، لا سيما وقد وقعت فى وقت عصيب بالنسبة لى ..

ـ انا أعـرف ..

وسطع فى عينى السفير القديم قبس من كبرياء ، لقـد كان فخورا أن يكون له ولد فى هذه السن .

ـ ارجو ان نتحدث بصوت منخفض ، لانني افضل الا تعـلم مدام سان ـ مارك بهذه القصة .. ففى مثل حالها ، قد نندم او علمت بالخبر .. ولكن فى الواقع ، فيم تريد أن تسألنى ؟ اننى لا أكاد أعرف كوشيه هذا .. لقد لمحته مرتين او ثلاث مرات وانا أعبر الفناء .. انه ينتمى الى أوساط أتردد عليها من آن لآخر ، «الهوسمان» .. ولكن ما كان له أن يرتادها .. كل ما هناك أننى لمحت اسمه فى الدليل الذى ظهر حديثا .. وانا أعتقد انه على شيء من السوقية ، أليس كذلك ؟.

ـ اى انه خرج من طبقة الشعب .. ولاقى بعض الصعوبات ليصبح ما أصبح عليه ..

ـ لقد أخبرتنى زوجتى بأنه تزوج فتاة من عائلة كريمة ، كانت صديقة قديمة لها فى القسم الداخلى .. وهذا أحد الأسـباب التى يستحسن من أجلها الا نطلعها على الأمر .. ماذا ترغب اذن ؟

ومن خلال النوافذ الكبيرة ، كان الناظر يشرف على ميـدان الفوج بأشعة شمسه الخفيفة البهيجة . وفى حديقة الميدان ، كان البستانيون يقومون برى الأرض الخضراء وأدغال الأزهار . وثمـة عربات نقل تجرها خيول فى خطى ثقيلة .

ـ مجرد استعلام .. اننى أعلم انك ، وقد ضقت بانتظار الاحداث وهذا أمر طبيعى ، خرجت مرارا تجوب الفناء .. فهل حدث أن صادفت شخصا ؟ الم تر شخصا يتجه ناحية المكاتب التى تقـع فى اقصى الفناء ؟.

فراح السيد مارتان يفكر وهو يعبث بقطع الورق .

ـ انتظر .. كلا ! لا اعتقد .. يجب أن تعلم أن أمورا أخرى

كانت تشغل فكرى .. ان الحارسة قد تستطيع ذلك اكثر منى .
ـ ان الحارسة لا تعرف شيئا ..

ـ وانا ... كذلك !... او بالأحرى ... ولكن لا يمكن ان يكون لهذا اية علاقة بالموضوع .

ـ قل مع ذلك .

ـ فى لحظة ما ، سمعت ضوضاء تأتى من ناحية أوعيةالقمامة ... كنت بلا عمل ... فاقتربت فرايت ساكنة من الطابق الثانى ...

ـ مدام مارتان ؟

ـ اعتقد ان هذا هو اسمها ... اننى أعترف بأن معرفتى بجيرانى ليست كما يجب ... كانت تنقب فى سطل من الزنك... واذكر انها قالت لى :

ـ ملعقة فضية سقطت عفوا فى القاذورات ...

فسألت :

ـ وهل عثرت عليها ؟

فقالت بشىء من الاحتداد :

ـ اجل !... اجل ...

فسأل ميجريه :

ـ وماذا فعلت عندئذ ؟

ـ صعدت الى مسكنها ، بخطى حثيثة ... انها انسانة ضئيلة عصبية ، يلوح عليها دائما انها تجرى ... واذا لم تخنى ذاكرتى ، فلقد حدث ان فقدنا خاتما قيما بهذه الطريقة ... وأجمل شىء ، أن أحد لمامى الخرق أعاده للحارسة ، اذ كان قد عثر عليه وهو يعالج خطافه ...

ـ هل تستطيع ان تقول لى فى اية ساعة وقعت هذه الحادثة؟

ـ قد يكون ذلك صعبا بالنسبة لى ... انتظر ... لم اكن ارغب فى العشاء ... ومع ذلك ، ففى حوالى الثامنة والنصف ،

واح البير ، خادمنا ، يتوسل الى أن أتناول شيئا ... ولما رفضت الجلوس الى المائدة ، احضر لى فى حجرة الاستقبال فطائر صغيرة بالأنشوجة ... كان ذلك قبل ...

ـ قبل الثامنة والنصف ؟

ـ أجل ... ولنفترض ان الحادث ، كما تقول ، وقع بعد الثامنة بقليل ... ولكننى لا اعتقد أن لذلك أية أهمية . ما رأيك فى هذا الموضوع ؟ ... أما من جهتى فأنا أرفض تصديق ما بدأت تروجه الاشاعات ، من أن الجريمة ارتكبها شخص من المنزل ... تصور أن أى كائن يمكن أن يدخل الفناء ... ومن جهة أخرى فسأوجه للمالك طلبا حتى يوصد الباب منذ الغروب ...

كان ميجريه قد نهض ، فقال :

ـ لم أكون بعد رأيى !

وأقبلت الحارسة تحمل البريد ، ولما كان باب الردهة لا يزال مفتوحا ، فقد لمحت المفتش على حين فجأة وهو يختلى بالسيد سان ـ مارك .

قلبى يا مدام بورسييه ! . لقد قلبت رأسا على عقب ! . وراحت نظرتها تكشف عن عوالم من الاضطراب !

ترى أيسمح ميجريه لنفسه فى أن يرتاب فى آل سان ـ مارك ؟ او فى مجرد مضايقتهم بأسئلته ؟

ـ أشكرك يا سيدى ... وارجو أن تغفر لى هذه الزيارة ...

ـ سيجار ؟

كان السيد سان ـ مارك سيدا على قدر كبير من العظمة تدل على رجل السياسة أكثر مما تدل على رجل الدبلوماسية .

ـ أنا تحت أمرك .

وأغلق الخادم الباب . وهبط ميجريه السلم فى تؤده ، فوجد نفسه فى الفناء حيث يبحث موزع احدى المحلات الكبرى عن الحارسة دون جدوى . لم يكن فى المسكن الا كلب ، وقط والطفلان الصغيران المنصرفان الى تلطيخ بعضهما بحساء مختلط باللبن .

ـ ماما ليست موجودة ؟

ـ ستعود الآن « سيدى » ! لقد صعدت بالبريد ...

وفى المكان الوضيع من الفناء ، بالقرب من المسكن ، كان ثمة أربعة صناديق من الزنك،يأتيها السكان منذ الليل متتابعين فيلقون فيها بقاذوراتهم . وفى السادسة صباحا ، تفتح الحارسة باب الدخول ، فيقوم رجال التنظيم بتفريغ الأوعية فى عربتهم .

وهذا الركن ، لا يكون مضيئا ، فى المساء . فالمصباح الوحيد الذى ينير الفناء يوجد فى الناحية الأخرى ، أسفل السلم .

فعم جاءت تبحث مدام مارتان تقريبا في اللحظة التى قتل فيها كوشيه ؟

هل كانت هى الأخرى مصممة على العثور على قفاز زوجها ؟

ـ كلا ! دمدم بها ميجريه وقد تذكر فجأة امرا . فمارتان لم ينزل القمامة الا فى وقت متأخر جدا .

اذن فما معنى هذه الحكاية ؟ الموضوع لا يمكن ان يكون موضوع ملعقة ضائعة ففى أثناء النهار لا يحق للسكان ان يضعوا اى شيء داخل الأوعية الفارغة :

اذن عم كانا يبحثان ، كلاهما ، الواحد بعد الآخر ؟

كانت مدام مارتان تنقب فى نفس الوعاء !

ومارتان كان يحوم حوله وهو يحك أعوادا من الثقاب !

والقفاز ، عثر عليه فى اليوم التالى !

ـ هل رايت الطفل ؟

اتى هذا الصوت من خلف ميجربه .

كان صوت الحارسة التى كانت تتحدث عن طفل آل سان ـ مارك ، وهى اكثر تأثرا مما لو كانت تتحدث عن ابنيها .

ـ اظن انك لم تخبر السيدة بشيء ؟ فمن الواجب الا تعلم ...

ـ اعرف : اعرف !

ــ اما عن الاكليل ... أقصد اكليل السكان... فانني اتساءل عما اذا كان من الواجب أن نحمله اليوم الى منـــزل الميت ، أم أن العرف يحتم الا نقدمه الا ساعة الجنازة ... كان الموظفون لطفاء للغاية ، فقد جمعوا ثلاثمائة فرنك .

ثم قالت وهي تلتفت ناحية أحد الموزعين :

ــ ماذا هناك ؟

ــ سان ــ مارك !

ــ السلم الذى الى اليمين . الطابق الأول المواجه ... اضغط على الجرس برقة ، ارجوك .

ثم قالت لميجريه :

ــ آه لو علمت مقدار ما تتلقاه من زهور ! لدرجة أنهما لا يعرفان اين يضعانها .. لقد اضطرا الى وضع الجزء الأكبر منها فى حجرات الخدم ... الا تحب ان تدخل ؟ ... جوجو ، ألن تدع اختك فى حالها ؟...

كان المفتش لا يزال ينظر الى الأوعية . محاولا أن يتوصل الى معرفة ما عسى كان يبحث عنه مارتان وزوجه بداخلها .

ــ هل تنقلينها فى الصباح ، فوق الطوار ، كما هو متبع ؟

ــ كلا ! فقد أصبح هذا الأمر مستحيلا منذ ترملت . أو انه يلزمنى عندئذ شخص آخر ليساعدنى ، لأنها بالغة الثقل بالنسبة لى ... ورجال التنظيم ظرفاء وأنا اقدم لهم من آن لآخر قدحا من الجعة انهم يأتون حتى الفناء لكى يحملوا الصناديق .

ــ حتى لا ينقب فيها المامو الخرق ؟

ــ اتعرف ذلك ؟ انهم ايضا يدخلون الفنــــاء ... وفى بعض الأحيـــان يكونون اربعة او خمسة ، فيوسخون المـــكان بطريقة فظيعة ...

ــ اشكرك .

وانصرف ميجريه ، حالما ، آسيا او مستحقا أن يقوم بزيارة المكاتب من جديد ، كما عقد العزم على ذلك فى الصباح .

وعندما بلغ رصيف الارفيفر ، كان فى انتظاره من يقول له :
ـ طلبك شخص بالتليفون ، عقيد .

ولكنه واصل تفكيره . وما أن فتح باب مكتب المفتشين ، حتى نادى قائلا :

ـ لوكا ! ستذهب الآن فورا ... وستقوم باستجواب جميع حامى الحرق الذين تعودوا أن يترددوا على ضواحى ميدان الفوج... واذا لزم الأمر ستذهب الى مصنع سان ـ دينى ، الذى تحرق فيه القمامة ...

ـ ولكن ...

ـ يجب أن تعرف ما اذا كان أحدهم قد لاحظ شيئا غريبا فى الأوعية الخاصة بالمنزل رقم ٦١ ميدان الفوج ، صباح أول أمس ...

كان قد تداعى فوق الكرسى ومرت بخاطره هذه الكلمة : عقيد ... أى عقيد ؟ انه لا يعرف منهم أحدا ...

آه أجل ! ومع ذلك فأحدهم يرد فى القصة ! عم مدام كوشيه ! فماذا يريد منه ؟

ـ ألو !... أليزيه ١٧ ـ ٦٢ ؟... أنا ، ميجريه مفتش مباحث من الشرطة القضائية . نعم ؟... العقيد دوروموى هو الذى يريد أن يتحدث الى !... أنا باق على الجهاز ، أيوه ... ألو ... أهلا أنت ياسيدى العقيد ؟... ماذا جرى ؟ وصية ؟... أنا لا أسمع جيدا ... كلا ، بالعكس اخفض صوتك !... ابتعد قليــــلا عن الجهاز ... هذا أفضــــل ... ماذا اذن ؟... عثرتم على وصية غريبة ؟... وغير معقولة أيضا ؟... مفهوم ! سأكون عندكم بعد نصف ساعة ... كلا ! لا داعى لركوب عربة أجرة ...

وأشعل غليونه وهو يدفع الكرسى ، ووضع ســــاقا فوق الأخرى .

(٧)

النساء الثلاث

ـ العقيد ينتظرك فى حجرة سيادته • تفضل واتبعنى •••

كان نعش الميت مقفولا • وثمة حركة فى الحجرة المجاورة ، التى تبدو أنها حجرة مدام كوشيه • وراحت الخادمة تدفع أحد الأبواب، فلمح ميجريه العقيد واقفا بالقرب من المنضدة ، وقد وضع عليهـا يده خفيفا ، مرفوع الهامة ، وقورا ثابتا كأنه يقف أمام نحات يصنع له تمثالا •

ـ تفضل بالجلوس !

غير أن ميجريه لم يجلس ، واكتفى بفك أزرار معطفه الثقيل • ووضع قبعته فوق أحد الكراسى ، وشرع يحشو الغليون •• ثم قال وهو يتطلع حوله باهتمام :

ـ هل أنت الذى عثرت على الوصية المذكورة ؟

ـ أجل ، صباح اليوم • ان ابنة أخى لا تعلم شـيئا بعد • ويجب أن أقول أن الأمر يدعو للاشمئزاز الشديد •••

حجرة غريبـة على شـاكلة كوشيه ، وأثاث على الطراز الكلاسيكى شأن بقية الحجرات • وثمة بعض التحف القيمة ولكن ، الى جوار ذلك ، كان الناظر يرى أشياء تنم عن ميول الرجـل الغريبة •

وأمام النـافذة كانت ثمة منضدة يبدو أنه كان يتخذ منهـا مكتبا ، وعليها بعض لفافات التبغ التركية ، ولكن الى جوار ذلك أيضا نجد مجموعة كاملة من الغليونات الكرزية الواحد منهـا

بستة دراهم ، سودها كوشيه من فرط الاستعمال • ونجد كذلك عباءة بيت أرجوانية ! كانت أكثر الموجودات اشراقا ! ثم نجد عند قاعدة السرير أحذية مثقوبة النعال •

كان بالمنضدة درج •

ـ أظنك تلاحظ أنها مغلقة بالمفتاح ! ولست أدرى حتى ما اذا كان المفتاح موجودا • لقد حدث صباح اليوم أن احتاجت ابنه أخى الى بعض المال لتسدد حساب أحد الموردين وأردت أن أجنبها عملية امضاء صك • فبحثت فى هذه الحجرة • وهذا ما وجدته •••

مظروف يحمل اسم « الجراند أوتيل » • ورقة خطاب ضاربة الى الزرقة تحمل نفس العبارة •

ثم أسطر يبدو أنها خطت بلا تركيز ، وكأنها تسويده •

« هذ هى وصيتى ••• »

وبعد ذلك ، هذه الجملة التى لم تكن فى الحسبان :

« نظرا لأننى قد لا أهتم بالاستعلام عن قوانين الارث ، فاننى أرجو السيد دامبير موثق عقودى ، أن يبذل جهده حتى تقسم ثروتى بالتساوى ما أمكن بين :

« أولا : زوجتى ، چرمين دوروموى •

ثانيا : زوجتى الأولى وهى اليوم زوجة السيد مارتان ، وقاطنة بميدان الفوج رقم ٦١ •

ثالثا : نين مونار ، التى تنزل فى فنـــدق بيجال ، شـــارع بيجال » •

* * *

ـ ما ظنك ؟

كان ميجريه مبتهجا • لقد غدا كوشيه فى نظره ، بعد هـــذه الوصية لطيفا للغاية •

وأردف العقيد قائلا :

ـ طبعا ، هذه الوصية ساقطة ، فهى تحوى كثيرا من أسباب بطلانها • وبمجرد انتهاء الجنازة ، سنطعن فيها • واذا كنت وجدت أن من المهم ومن الضرورى أن أتحدث اليك الآن ، فذلك لأن •••

كان ميجريه لايزال يبتسم كما لو كان يشهد ملهاة • حتى ورقة « الجراند أوتيل » هذه ! فكوشيه ، شأن كثيرين من رجال الأعمال ، الذين لا يملكون مكاتب فى قلب المدينة ، كان يتخذ من الجراند أوتيل مكانا للقاءاته ، وفى انتظار أحد الأشخاص فى القاعة الفسيحة أو فى حجرة التدخين ، سحب أحد المساند وكتب تلك السطور •

ولم يغلق المظروف ! وألقى بالجميع داخل درجه ، مرجئا عملية تحرير هذه الوصية طبقا للقواعد الى ما بعد •

ومضى على ذلك خمسة عشر يوما •

وقال العقيد :

ـ لابد أنك فوجئت بهذا الأمر الغريب • فقد نسى كوشيه مجرد ذكر ابنه ! وهذا وحده يعتبر دليلا كافيا على بطلان الدعوى و •••

ـ هل تعرف روچيه ؟

ـ أنا ؟••• كلا •••

وكان ميجريه لايزال يبتسم •

ـ كنت أقول الآن اننى اذا كنت قد رجوتك للمجىء ، فذلك لأن •••

ـ هل تعرف نين مونار ؟

فذعر المسكين كما لو أن أحدا داس قدمه •

ـ لاداعى لأن أعرفها ! ان عنوانها فقط ، بشارع بيجال ، يعطينى فكرة عن ••• ولكن ماذا كنت أقول ؟••• آه ! أجل ! هل رأيت تاريخ الوصية ؟ انه حديث • فقد مات كوشيه بعد كتابتها بأسبوعين ••• لقد قتل !••• افترض اذن أن احدى المرأتين المذكورتين كانت قد علمت بهذه الوصية ••• اننى أعتقد أنهما ليستا من الثراء فى شىء •••

ـ ولم تقول امرأتين ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ ثلاث نساء ! ان الوصية تذكر ثلاث نساء ! نساء كوشيه الثلاث لو أردت !

واعتقد العقيد أن ميجريه يمزح .

ـ انني أتكلم جادا ... ولا تنس أن في البيت قتيلا ! وأن الأمر يتعلق بمستقبل أشخاص عديدين !...

شيء بديهي ! ولم يحل ذلك دون رغبة ميجريه في الضحك . ولم يكن يستطيع هو نفسه أن يستبين السبب .

ـ أشكرك لأنك أطلعتني ...

كان العقيد مغموما . فلم يكن يدرك معنى ذلك الموقف الذي اتخذه موظف خطير كميجريه .

ـ انني أفترض أن ...

ـ الى اللقاء ياسيدي العقيد ... وأرجوك أن تنقل تحياتي الى مدام كوشيه ...

وفي الشارع ، لم يستطع أن يكتم هذه الدمدمة ...

ـ كوشيه أيها الجليل !

هكذا ، في جمود ، بغير ضحك ، وضع نساءه الثلاث في وصيته ! بما في ذلك زوجته الأولى ، التي أصبحت مدام مارتان ، والتي كانت لا تفتأ تقف في طريقه تصوب نحوه نظرة ازدراء ، وكأنها تأنيب حي ! بما في ذلك نين الصغيرة الرضية ، التي كانت تبذل وسعها لكي ترفه عنه !

وعلى النقيض من ذلك ، نسي أن له ولدا !

وظل ميجريه لحظة طويلة ، يسائل نفسه عن أول شخص يحمل له هذا الخبر . أيحمله الى مدام مارتان ، التي قد تكفي الثروة لتدفعها من السرير ؟ أم الى نين ؟

ـ انهما لم تستوليا بعد على النقود ...

انها قصة من شأنها أن تستمر سنوات ! فقد ترفع دعوى ! وعلى كل ، فان مدام مارتان قد لا تستسلم .

ولم يحل ذلك دون نزاهة العقيد ! فقد كان في استطاعته أن يحرق الوصية دون أن يعلم بها أحد ...

وراح ميجريه يخترق الحى الأوروبى فى مرح . والشمس الحمراء تلطف من برودة الجو الذى يسوده نوع من البهجة .

ـ كوشيه أيها الجليل !

ودخل مصعد فندق بيجال دون أن يسأل شيئا . وبعد لحظات كان يطرق باب « نين » . كانت ثمة ضوضاء بالداخل . وانفرج الباب بمقدار يسمح بمرور يد ظلت ممتدة فى الفضاء .

كانت يد امرأة كستها التجاعيد . ولما لم يتحرك ميجريه نفد صبرها ، فبدا وجه عجوز انجليزية ، ثم دار حديث غير مفهوم .

أو بالأحرى أدرك ميجريه أن الانجليزية تنتظر بريدها ، وهذا ماكانت تدل عليه حركتها . والأوضح من ذلك هو أن نين لم تعد تشغل حجرتها وقد لا تكون فى الفندق كله .

فحدث ميجريه نفسه قائلا :

ـ الأجر هنا مرتفع جدا بالنسبة لها !

ثم توقف مترددا أمام الباب المجاور ، فحمله أحد الخدم على اتخاذ قرار ، عندما راح يسأله فى تشكك .

ـ عم تبحث ؟

ـ السيد روچيه كوشيه ...

ـ ألا يرد ؟

ـ لم أطرق الباب بعد .

وابتسم ميجريه مرة أخرى . كان جزلا . لقد شعر فجأة فى ذلك الصباح أنه يشترك فى أداء مشهد هزلى ! ان الحياة كلها كانت مهزلة ! ومقتل كوشيه كان مهزلة ، وبخاصة وصيته !

ـ ادخل !

وتحرك المزلاج فى الباب ٠ فكان أول ماقام به ميجريه هو أن أزاح الستائر وفرج النافذة ٠

لم تكن سيلين قد استيقظت بعد ٠ وكان روچيه يحك عينيه ويتثاءب :

ـ آه ! هذا أنت ٠٠٠

كان ثمة تقدم ٠ فلم تكن رائحة الاتير تغلب على جو الحجرة ٠ ووضعت الملابس فى أكوام فوق الأرض ٠

ـ ٠٠٠ ماذا تريد ؟

وجلس فوق السرير ، وتناول كوب ماء كان فوق منضدة السرير وأفرغه دفعة واحدة ٠

ـ لقد عثر على الوصية !

أعلنها ميجريه وهو يغطى ساق سيلين العارية ، التى كانت ترقد متكورة ٠

ـ وبعد ؟

لم يظهر روچيه أى انفعال ، اللهم الا فضولا غامضا ٠

ـ وبعد ؟ انها وصية غريبة ! لسوف يسيل لها مداد كثير ، ولسوف يجنى رجال القانون من ورائها أموالا طائلة ٠

تصور أن والدك ترك كل ثروته لنسائه الثلاث ٠

وبذل الشاب مجهودا لكى يستطيع أن يفهم ٠

ـ نسائه ٠٠٠ ؟

ـ أجل زوجته الشرعية الحالية ٠ ثم والدتك ! وأخيرا عشيقته « نين » ، التى كانت لاتزال جارتك حتى الأمس ! لقد كلف موثق عقوده أن يقوم باللازم لكى تحصل كل منهن على نصيب مساو للآخرين ٠

لم يحرك ذلك من روچيه ساكنا ٠ كان يبدو عليه التفكير ٠ ولكنه ليس تفكيرا فى أمر يخصه شخصيا ٠

ـ الأمر واضح ٠

قالها روجيه أخيرا ، بلهجة رزينة تتناقض مع الكلمات .

ـ هذا بالضبط ماقلته للعقيد .

ـ أى عقيد ؟

ـ قريب مدام كوشيه ... انه يقوم الى جانبهـــا بدور سيد العائلة ...

ـ يجب أن يسحب بكرة !

ـ صدقت !

وراح الشاب يخرج ساقيه من السرير ، ويتناول سروالا ملقى فوق مسند أحد الكراسى .

ـ لايبدو أنك تأثرت لهذا الخبر .

ـ أنا ، أنت تعلم ...

كان يزرر السروال ، وراح يبحث عن الماشطة ، ويوصد النافذة التى كانت تسمح بدخول هواء شديد البرودة .

ـ ألست فى حاجة الى المال ؟

كان ميجريه قد تحول فجأة الى الجد . وغدت نظرته ثقيلة ، فاحصة .

ـ لست أدرى .

ـ ألا تدرى ما اذا كنت فى حاجة الى المال أم لا ؟

فوجه روجيه الى المفتش نظرة غائمة ، فأحس ميجريه بضيق .

ـ أنا لا أهتم ...

ـ يبدو أنك تجنى من المال كثيرا !

ـ اننى لا أجنى درهما واحدا !

وتثاءب ، وتطلع الى نفسه فى المرآة عابسا . ولاحظ ميجرية أن سيلين كانت قد استيقظت . لم تكن تتحرك ويبدو انها سمعت شطرا من المحادثة ، لأنها كانت ترقب الرجلين بفضول .

ومع ذلك فقد كانت هى الأخرى فى حاجة الى كوب المـــاء .

وكان جو الحجرة ، بفوضاها ، ورائحتها التفهة ، وهذين الكائنين الحاملين ، أشبه شيء بعصارة مجتمع خائر العزم •

ـ هل تدخر شيئا من المال ؟

فبدأ روچيه يضيق بهذه المحادثة • وراح يبحث عن سترته ، وأخرج منها حافظة صغيرة ، وألقاها الى ميجريه •

ـ فتش !

كان بها ورقتان من فئة المائة فرنك ، وبعض أوراق النقد الصغيرة ، ورخصة قيادة ، ووصل ملابس من الورق المقوى القديم •

ـ ماذا تفعل اذا هضم حقك في الميراث •

ـ أنا لا أريد ميراثا •

ـ ألن تطعن في الوصية ؟

ـ كلا !

ونت هذه الكلمة بطريقة غريبة • حتى أن ميجريه الذى كان ينظر الى البساط ، رفع رأسه قائلا :

ـ هل تكفيك ثلاثمائة وستون ألف فرنك ؟

عندئذ تغير موقف الشاب • فسار ناحية المفتش وتوقف على بعد خطوة صغيرة منه ، حتى تلامست كتفاهما • ودمدم وهو يضغط على قبضتيه :

ـ مرة ثانية !

وهنا راح مسلكه يصطبغ بشيء من السوقية ! وكان موقفه ينبيء عن الأحياء البلدية ، ومشاجرات الحانات •

ـ انني أسألك عما اذا كانت الثلاثمائة والستون ألف فرنك التي تخص كوشيه •••

واستطاع ميجريه بالكاد أن يوقف ذراع محدثه • والا لكان تلقى لكمة من أقوى اللكمات في حياته !

ـ هدىء من روعك !

ولكن روچيه كان هادئا ! لم يكن يحاول أن يخلص نفسه ! كان شاحبا • ثابت النظرة • وكان ينتظر أن يتركه المفتش •

ألكي يعاود الضرب ؟ أما سيلين ، فكانت قد قفزت من فوق السرير ، مع أنها كانت نصف عارية • وكانت تبدو مستعدة لفتح الباب والاستغاثة •

لقد مر كل شيء في هدوء • ولم يضغط ميجريه على رسغه الا لثوان معدودات ، وعندما ترك له حرية التحرك ، لم يتحرك الشاب •

وحلت لحظة طويلة من الصمت ، ظن الناظر أن كلا منهما يتردد في قطعها ، كأنهما في معركة يتردد كل منهما في أن يكون أول من يضرب •

وأخيرا تكلم روچيه :

ـ انك تتدخل فى الأمور أكثر من اللازم !

والتقط من فوق الأرض عباءة بيت بنفسجية ، وألقاها الى صاحبته •

ـ هل تسمح أن تخبرنى عما تنوى عمله ، عندما تنفق المائتى فرنك ؟

ـ وماذا فعلت حتى الآن ؟

ـ ليس هناك الا اختلاف بسيط : والدك قتل ولن تستطيع أن تطالبه بالمال •••

وهز روچيه كتفيه كمن يريد أن يقول ان محدثه لايدرك من الأمر شيئا •

واكتنف المكان جو لا يمكن وصفه • لم يكن جو مأساة بالمعنى الحقيقى • وانما كان شيئا آخر يبعث عن التأثر ! ربما كان حسوا بوهيميا بلا شعر ؟ ربما كانت تلك الحافظة وتلك المائتا فرنك ؟•••!

أو تلك المرأة القلقة ، التى تكشف لها حالا أن غدها لن يكون شبيها بأيامها الخالية ـ وأن عليها أن تبحث لها عن سند جديد ؟

أو بالأحرى كلا ! انه روجيه نفسه الذى كان يثير الرعب ! لأن أعماله وحركاته لم تكن تتفق وماضيه ، وتتناقض مع ما يعـــرفه ميجريه عن طباعه !

هدوءه ··· ولم يكن فى ذلك متصنعا !··· كان هادئا فعلا ·

ـ اعطنى مسدسك !

قالها المفتش فجأة ·

فاخرجه الشاب من جيب فى سرواله ، وقدمه وعلى شفتيه ظل ابتسامة ·

ـ هل تعدنى بأن ···

لم يكمل ، لانه رأى المرأة على أهبة أن تصرخ فزعا · كانت لاتدرك شيئا ، غير أنها كانت تشعر أن أمرا فظيعا يجرى ·

وبدت السخرية فى عينى ميجريه ·

كان الأمر أشـــبه بالهرب ولم يعد لدى ميجريه مايقـــوله أو ما يأتيه · فتقهقر واصطدم عند خروجه بافريز الباب وهو يكتم سبابه ·

وفى الشارع ، كان قد فقد مزاجه المرح الذى كان يتمتع به فى الصباح · ولم يعد يرى فى الحياة أى مسلك هزلى · ورفع رأســه لكى يرى نافذة روجيه وصاحبته · كانت مغلقة · فلم ير شيئا ·

كان معتل المزاج كما يحدث للمرء فجأة عندما يعجز عن الفهم ·

لقد صدرت عن روجيه نظرتان أو ثلاث نظرات ··· لم يستطع أن يفسرها · لم تكن تلك النظرات التى كان ينتظرها ··· كانت نظرات لا تتفق وبقية ماجرى ··· وعاد أعقابه ، فقد نسى أن يسأل فى الفندق عن عنوان «نين» الجديد · فقال له البواب :

ـ لا أعلم · لقد دفعت أجر حجرتهـــا وانصرفت بحقيبتها ! لاداعى لعـــربة أجرة ··· فيبدو أنها اختارت فندقا أرخص فى الحى ···

ـ من فضلك ... لو ... لو حدث شيء فى الفندق ... أجل شيء غـير عادى ... فارجوك أن تخبرنى شخصيا ، بالشرطـة القضائية ... ميجريه مفتش مباحث .

لقد حقد على هذا الاجراء . فماذا يمكن أن يحدث ؟ ولم يحل ذلك دون أن يفكر فى الورقتين فئة المائة فرنك فى الحافظة ، ونظرة سيلين الخائفة .

وبعد مضى ربع سـاعة ، دخل ملهى « المولان بلو » من باب الفنانين . كانت الصالة فارغة مظلمة ، وكانت المقاعد وحاشيات المقصورات مبطنة بحرير أخضر .

وعلى خشـبة المسرح ست نساء يرتعشن من البرد ، على الرغم من معاطفهن ، لا يفتأن يكررن نفس الخطوة ـ خطوة من البساطة بحيث تثير الضحك ـ بينما رجل بدين انبح صوته ، يصرخ مرددا لحنا موسيقيا .

ـ واحـد !.. اثنان !... ترالالا .. كلا !.. ترالالا .. ثلاثة ! ثلاثة !... ثلاثة ، يا الهى ...!

كانت نين هى ثانية النساء ... وقد عرفت ميجريه الذى كان واقفا بالقرب من أحد الأعمدة . ورآها هو أيضا . ولكن الأمر كان سيان بالنسبة له .

ـ واحد !... اثنان !... ترالالا ...

واستمر ذلك ربع ساعة . وكان الجو أشد برودة منه فى الخارج . وكانت قدما ميجريه جامدتين من فرط البرد . وأخيرا جفف الرجل جبينه ، وقذف فرقته بسبة عوضا عن التحية .

وصاح من بعيد مخاطبا ميجريه :

ـ أمن أجلى ذلك ؟

ـ كلا !... بل من أجل ...

واقتربت «نين» ضيقة ، تسائل نفسها عما اذا كان من الواجب أن تصافح المفتش .

ـ لدى خبر مهم ، جئت لأعلنك به •

ـ ليس هنا ••• فنحن لا يحق لنا أن نستقبل أحدا فى المسرح ••• الا فى المساء • لأن ذلك يستوجب دفع رسوم الدخول ••

وجلسا الى مائدة بار صغير مجاور •

ـ لقد عثروا على وصية كوشيه ••• ترك ثروته كلها لثلاث نساء ••• ونظرت اليه متعجبة دون أن تفطن الى الحقيقة •

ـ زوجته الأولى أولا ، مع أنها تزوجت من جـــديد ••• ثم زوجته الثانية ••• ثم أنت •••

فظلت عيناها مثبتتين على ميجـريه الذى شاهد حدقتيهـــا تتسعان ، ثم تمتلئان بالدموع • وأخيرا أخفت وجهها فى يدها لكى تبكى •

- ٨ -

المـــرض

كان مريضا بالقلب . وكان يعرف ذلك .

وابتلعت « نين » جرعة من خمر مشهى فى لون الياقوت .

ـ ولذلك كان لا يسرف فى صحته . كان يقول انه قد اشتغل بمبا فيه الكفاية ، وأن الوقت قد حان لكى يتمتع بالحياة . .

ـ هل كان يتحدث عن الموت أحيانا ؟

ـ فى أغلب الأحيان !. . ولـكن ليس عن . . عن هذه الميتة ! كان يفكر فى المرض الذى أصاب قلبه .

اما الملهى فقد كان أحد تلك البارات الصغيرة التى لايتردد عليها الا زبائنها . وكان صاحبه يتطلع الى ميجريه خلسة كأنه برجوازى موتر . وأمام الخمارة ، كان الحديث يدور حول سباقات العصر .

ـ هل كان حزينا ؟

ـ هذا يصعب شرحه ! لانه لم يكن رجلا كغيره من الرجال . فكان يحدث مثلا ان يكون فى المسرح ، او فى غيره من الأماكن كان يلهو ، ثم اذا به يقول دونما سبب ، وهو يضحك عاليا :

ـ ما اقذر الحياة ، هيه ، نينيت !. .

ـ هل كان يهتم بابنه ؟

ـ كلا . . .

ـ هل كان يتحدث عنه ؟

ـ تقريبا ابدا ! فقط عندما كان يأتيه ليسأله مالا .

ـ وماذا كان يقول ؟

ـ كان يتنهد قائلا : يا له من شقى مسكين !..

كان ميجريه قد أحس بذلك ، فلسبب أو لآخر ، قلما كان كوشيه يشعر نحو ابنه بعاطفة . بل كان يبدو انه أصيب من ناحيته بنفور . نفور بلغ حدا لم يحاول معه او ينقده ! لأنه لم يكن يؤنبه على الاطلاق ، بل كان يعطيه المال تخلصا منه ، أو شفقة به .

ـ « جارسون » ! كم الحساب ؟

ـ اربع فرنكات ونصف !

وخرجت نين معه من الحان ، ولبثا لحظة على طوار شارع « فونتين » .

ـ اين تقيمين الآن ؟

ـ شارع « لوبيك » اول فندق الى اليسار . لم أعرف اسمه بعد . انه مناسب ..

ـ عندما تصبحين ثرية ، سيكون فى استطاعتك ...

فندت عنها ابتسامة ندية ..

ـ انت تعرف جيدا اننى لن اكون ثرية ما حييت ! فأنا لم اخلق لذلك ..

الأغرب من ذلك هو أن ميجريه كان يشعر نفس الشعور ! لم تخلق نين لكى تكون غنية فى يوم من الأيام ! وهو لا يستطيع أن يوضح لذلك سببا .

ـ سأصحبك حتى ميدان بيجال ، وأركب الترام من هناك ..

وسارا الهوينى ، هو ، ضخما ، ثقيلا ، وهى ضئيلة ، الى جانب ظهر صاحبها العريض .

ـ آه لو علمت ما اقاسيه فى وحدتى ! ولحسن الحظ هناك المسرح ، « بروفتان » كل يوم ، فى انتظار الاستعراض الجديد ..

كان عليها أن تخطو خطوتين لكل خطوة من ميجريه ، حتى أنها كانت تجرى تقريبا وعند زاوية شارع بيجال ، توقفت فجأة ، بينما ضيق المفتش ما بين حاجبيه ، وراح يدمدم قائلا :

ـ الغبى ؟

ومع ذلك فلم يكن الناظر ليستطيع أن يرى شيئا . كان فى مواجهة فندق بيجال جمع من نحو اربعين شخصا . وعند عتبة الباب ، شرطى يحاول أن يساعد الناس على المرور .

كان هذا كل ما فى الأمر ! غير أن المكان كان يكتنفه ذلك الجو الخاص ، ذلك الصمت الذى لا يخيم على الشارع الا عند وقوع المصائب . فتلجلجت نين وهى تقول :

ـ ماذا جرى ؟ .. فى الفندق الذى انزل فيه ! ..

ـ كلا ! لا شيء ! عودى انت ..

ـ ولكن ... اذا ..

فقال ميجريه بطريقة آمرة جافة :

ـ عودى انت !

فاطاعت ، خائفة ، بينما راح المفتش يمهد لنفسه طريقا بين الجمهور . كان يدخل بينه كالكبش . فراحت بعض النساء يمطرنه بالسباب . وعرفه شرطى المدينة وادخله فى دهليز الفندق .

وكان مفتش القسم موجودا هناك ، يتحدث الى البواب الذى صاح وهو يشير الى ميجريه :

ـ ها هو ذا ! .. اننى اعرفه ..

وتصافح رجلا الشرطة .. وكانت ثمة أصوات عويل ، وانين وتمتمة مبهمة تأتى من حجرة استقبال صغيرة تفضى الى الردهة . فسأل ميجريه قائلا :

ـ كيف حدث هذا ؟

ـ ان الفتاة التى كانت تعيش معه صرحت بأنه كان يقف امام النافذة ، هادئا للغاية . كانت هى ترتدى ملابسها . اما هو فكان يتطلع اليها وهو يصفر .. ولم يتوقف عن صفيره الا لكى يقول لها : ان لها فخدين جميلتين ، لكن ساقيها شديدتا النحافة ..

ثم عاد الى صفيره .. وفجاة لم تعد تسمع شـيئا .. فاقلقهـا احسـاس بالفراغ .. فنظر حيثما كان ، ولكنه لم يكن موجودا !..
وكان مستحيلا أن يكون قد خرج من الباب ..

ـ مفهوم ! الم يصب احدا عند سقوطه فوق الطوار ؟

ـ ابدا ! مات مبـاشرة ! تحطم العمود الفقرى فى مـكانين مختلفين .

وهنا اتى شرطى المدينة يعلن امرا :

ـ هاهم ! .

وراح مفتش القسم يشرح الأمر لميجريه :

ـ انها سيارة الاسعاف .. فلم يكن أمامنا غير هذا الاجراء .. هل تعلم أن هناك عائلة يمكن اخبارهـا ؟ عنـدما وصلت ، كان البواب يقول لى أن الشاب تلقى زيارة فى هذا الصباح .. قام بها رجل طويل قوى .. وكان يصف لى هذا الرجل فى اللحظة التى وصلت انت فيها ! فكنت أنت المعنى بالحديث ! هل من الواجب أن اقوم بكتابة تقرير ، ام انك ستتكفل بكل شىء فى الموضوع ؟

ـ قم بعمل تقرير !

ـ وموضوع العائلة ؟

ـ سأتكفل أنا به .

ودفع باب حجرة الاستقبال ، فرأى شيئا ممددا على الأرض يختفى تماما تحت غطاء احد الأسرة .

وكانت سيلين تجلس خائرة فى احد الـكراسى ، تصدر عويلا منتظما ، بينما سيدة ضخمة ، هى صاحبة الفندق او مديرته ، تفرط فى مواساتها .

ـ الأمر يختلف عما اذا كان قتل نفسه من اجلك ، اليس كذلك؟ لم يكن لك فى الموضوع حول ولا قوة .. انك لم ترفضى له شيئا على الاطلاق .

ولم يرفع ميجريه الغطاء ، بل انه لم يظهر لسيلين .

ومضت بضع لحظات ، أتى الممرضون بعدها فحملوا الجثة الى عربة الاسعاف التى تحركت صوب معهد الطب الشرعى .

عندئذ راح جمهور شارع بيجال يتشتت رويدا رويدا . وكان من بقى من الفضوليين لايدرون ما اذا كان الأمر حريقا ، أم انتحارا أم هو القبض على سارق باطلاق النار عليه .

***

ـ كان يصفر .. وفجاة لم أعد أسمع شيئا .

كان ميجريه يصعد سلم ميدان الفوج ، بطيئا ، بطيئا . وكلما كان يقترب من الطابق الثانى ، كان وجهه يزداد تقطيبا .

كان باب ماتيلد العجوز منفرجا ، وربما كانت المرأة مترصدة وراءه . ولكنه هز كتفيه ، وشد الحبل الذى يتدلى أمام باب آل مارتان .

كان غليونه بين شفتيه ، وفكر لحظة فى أن يضعه فى جيبه ثم راح يهز كتفيه ، مرة أخرى ، ثم سمع أصوات زجاجات تصطك وهمهمة مبهمة . وصوت رجلين يقتربان ، وأخيرا سمع فتح الباب .

ـ أجل ، يادكتور .. أجل ، يادكتور .. شكرا ، يادكتور .

كان السيد مارتان خائرا ، لم يستطع بعد ان يقوم بزينته ، ورآه ميجريه على حاله التى تدعو للشفقة ، والتى كان عليها فى الصباح .

ـ اهذا أنت ؟ .

وتوجه الطبيب ناحية السلم ، بينما راح السيد مارتان يدخل المفتش ، ويلقى نظرة خاطفة فى حجرة النوم .

ـ هل ساءت حالها ؟

ـ لاندرى .. ان الطبيب لايريد أن يقرر .. سيعود هذا المساء ..

وتناول تذكرة طبية من فوق جهاز اللاسلكى ، وثبت عليهما عينيه الفارغتين .

ــ ليس لدى احد لكى يذهب الى الصيدلى !

ــ ماذا حدث ؟

ــ تقريبا نفس ماحدث فى تلك الليلة ، ولكن بطريقة أشد . فقد شرعت ترتعد ، وتهذى بألفاظ لاتفهم .. فأرسلت فى طلب الطبيب الذى وجد أن حرارتها تبلغ أربعين درجة .

ــ اهى تهذى ؟

ــ مادمت أقول لك اننا لا نفهم ما تقول ! . يلزمنا ثلج ، وجهاز كاوتشوك لكى نضع الثلج فوق جبينها .

ــ هل تحب أن أظل هنا حالما تأتى من عند الصيدلى ؟

وكاد مارتان يرفض .. ثم استسلم للأمر .

وارتدى معطفا ، وانصرف وهو يتحرك بطريقة محزنة ، تثير الضحك . ثم عاد اعقابه لأنه كان قد نسى أن يأخذ معه نقودا .

لم يكن لميجريه أى غرض من بقائه فى الشقة . فلم يهتم بشىء ولم يفتح درجا ، بل لم يحاول أن ينظر الى كومة من الخطابات كانت موضوعة فوق احدى قطع الأثاث . كان يسمع التنفس غير المنتظم الذى يصدر عن المريضة ، التى كانت تطلق من آن لآخر زفرة طويلة ، ثم تهذى بالفاظ مبهمة .

وعندما رجع السيد مارتان ، وجده فى نفس المكان .

ــ هل احضرت كل مايلزم ؟

ــ اجل .. شىء فظيع ! والمكتب الذى لم اخطره !

وعاونه ميجريه فى تكسير الثلج وادخاله فى الجيب الكاوتش الأحمر ..

ــ الم تتلق زيارات فى هذا الصباح ؟

ــ نعم .. نشرات .

كان جبين مدام مارتان يفيض عرقا ، وشعرها الذى خطه الشيب يلتصق بخديها . وزال لون شفتيها ، أما عيناها فقد كانتا

لاتزالان تفيضان حياة بطريقة عجيبة . اتراهما تعرفتا على ميجريه الذى كان يمسك بالجهاز فوق راس المريضة ؟ لا تظن . ولكنها كانت تبدو هادئة بعض الشيء . وكان الكيس الأحمر فوق جبينها وعلى هذه الحال ، لبثت ثابتة لاتتحرك وهى تتطلع الى السقف .

وسحب المفتش السيد مارتان من يده ودخلا حجرة الطعام .

ـ عندى انباء كثيرة اريد ان اخبرك بها .

ـ آه .. !

قالها مارتان برجفة قلق .

ـ لقد عثر على وصية كوشيه. لقد ترك ثلث ثروته لزوجتك.

ـ كيف .. ؟

كان الموظف يضطرب ، مذهولا ، لهذا الخبر .

ـ تقول انه ترك لنـا ؟..

ـ ثلث ثروته ! ومن المحتمل الا يتم الموضوع بسهولة . فقد تعارض زوجته .. لانها من جانبها لن تحصل الا على ثلث الثروة ، اما الثلث الآخر فسيئول الى شخص اخر ، هى عشيقة كوشيه الاخيرة ، امراة تدعى « نين » ..

علام هذا الحزن الذى يبدو على مارتان ؟ انه اكثر من حزن ! انه ذعر ! ان الناظر ليظنه مبتور الذراعين والساقين ! انه يمعن النظر فى الارض عاجزا عن السيطرة على نفسه .

ـ اما الخبر الآخر فهو اقل بهجة . وهو يتعلق بابن زوجتك .

ـ روجيـه ؟

ـ لقد انتحر هذا الصباح ، بالقاء نفسه من نافذة حجرته ؟ بشارع بيجال ..

عندئذ ، راى المفتش مارتان القصير يشب على عقبيه ، وينظر اليه غاضبا ، ساخطا ، وهو يعوى قائلا :

ـ ماذا تقول ؟ انك تريد ان تجنني ، اليس كذلك ؟ اعترف بان هذا كله انما هى حيلة لكى تدفعنى الى الكلام !

ـ لاترفع صوتك هكذا ! زوجتك .

ـ الأمر عند سيان ! .. انك تكذب ! .. هذا مستحيل ..

واصبح من الصعب أن يتعرف الناظر على السيد مارتان .. لقد فقد حياءه تماما مرة واحدة ، وفقد معه تلك التربية المهذبة التى طالما تعلق بها .

وكان مما يثير فضول الناظر ان يتطلع الى وجهه المفكك ، وشفتيه اللتين ترتعدان ، ويديه اللتين تضطربان فى الفضاء .

فأكد له ميجريه قائلا :

ـ اقسم لك أن هذين الخبرين رسميان ..

ـ ولكن لماذا يفعل ذلك ؟ . انه لأمر يؤدى الى الجنون ! . ومع ذلك فان ما يحدث الآن فيه الكفاية ! . فزوجتى فى طريقها الى الجنون ! . لقد رأيتها انت ! . واذا استمرت هذه الحال ، فسأجن انا ايضا .. سنصبح كلنا مجانين ! .

واكتنفت نظرته حركة سقيمة . كان قد فقد كل سيطرة على نفسه .

ـ ابنها الذى يلقى بنفسه من النافذة ! . والوصية ! .

كانت كل ملامح وجهه متقلصة ، وفجأة ، حلت ازمة من الدموع ، حزينة ، مضحكة ، بغيضة .

ـ ارجوك ! . هدىء من روعك .

ـ حياة بأسرها .. اثنان وثلاثون عاما .. كل يوم .. الساعة التاسعة .. دون ادنى تأنيب .. كل ذلك لكى ...

ـ ارجوك ، تذكر أن زوجتك تسمعك ، وانها مريضة جدا ..

ـ وأنا ؟ . هل تعتقد اننى لست مريضا ، أنا ؟ . هل تعتقد اننى ساتحمل مثل هذه الحياة طويلا ؟ .

لم يكن راسه ليتحمل البكاء ، وهذا ماكان يجعل لدموعه تأثيرا .

ـ انت لا دخل لك فى الموضوع ، اليس كذلك ؟ وهو لايعدو ابن زوجتك .. وانت لست مسئولا ..

وتطلع مارتان الى المفتش ، وقد هدأ فجأة ، ولكن هذا لم يدم طويلا .

ـ أنا لست مسئولا ..

ثم استشاط غضبا .

ـ ولكن هذا لايمنع كونى هدفا لكل المضايقات ! فهاهنا تأتى أنت فتقص الحكايات ! وعلى السلم ، ينظر الي السكان شذرا .. وأؤكد انهم يظنون انني قتلت كوشيه هذا ! . أكيدا ! . وفوق ذلك ، فماذا يثبت لي انك لاترتاب فى انت أيضا ؟ فماذا جئت تفعل هنا ؟ . ها ! . ها ! . انك لا تجيب ! . فأنت لا تجرؤ على الاجابة .. يختارون الأضعف ! . رجلا عاجزا عن الدفاع عن نفسه ! . وزوجتي مريضة .. و ...

وبينا هو يشير بيديه ، اذا بمرفقه يصطدم بجهاز اللاسلكى الذى راح يتمايل ، ويهوى على الأرض ، فيتحطم مصدرا فرقعة اشبه بفرقعة المصابيح الكهربية التى تتحطم . عندئذ عاد الموظف الصغير الى الظهور :

ـ مركز يدر الفا ومائتين من الفرنكات .. ظللت فى انتظاره ثلاث سنوات قبل أن أحصل عليه .

ووصلت أنة من الحجرة المجاورة ، فأرهف السمع ، ولكنه لم يتحرك .

ـ الا تحتاج زوجتك الى شيء ؟

كان ميجريه هو الذى ينظر فى الحجرة ، وكانت مدام مارتان لاتزال راقدة ، فتلقى المفتش نظرتها لكنه كان عاجزا عن تحديدها اهى نظرة ذكاء حاد ، أم نظرة قلقة بتاثير الحمى .

لم تحاول أن تتكلم . وتركته ينصرف .

وفى حجرة الطعام ، اسند مارتان مرفقيه الى خزينة صغيرة وتناول راسه بين يديه وراح يمعن النظر فى الفرش ، على بعد سنتيمترات من وجهه .

ـ لمــاذا ينتحر ؟

ـ افترض مثلا انه هو الذى ...

وحل الصمت ، ثم سمع صوت أزيز ، وفاحت رائحة «شياط» نفاذة . لم يتنبه لها مارتان . فسأل ميجريه قائلا :

ـ هل هناك شيء على النار ؟

ودخل المطبخ الذى كان أزرق من البخار ، فوجد على موقد النار سطلا من لبن سال مافيه ، وأصبح يهدد بالانفجار . فأغلق صنبور الجهاز ، وفتح النافذة فرأى فناء العمارة ، ومعمل أمصال الدكتور رفيير ، وعربة الدكتور واقفة أسفل السلم ، واستطاع أن يسمع تكتكة الآلات الـكاتبة ، داخل المـكاتب .

واذا كان ميجريه يتلـكأ فى المطبخ ، فلم يكن ذلك بلا داع . لقد اراد ان يدع لمــارتان فسحة من الوقت يهدأ فيها ، ويستعيد ثباته ، فراح يحشو غليونه فى بطء ، ويشعله من مصباح معلق فوق الموقد . وعندما عاد الى حجرة الطعام ، لم يكن مارتان قد تحرك من مكانه ، ولـكنه كان قد هدأ . فانتصب متنهدا وبحث عن منديل ، وتمخط بصوت مرتفع .

ـ يبدو أن ذلك سينتهى نهاية سيئة ، أليس كذلك ؟

فأجاب ميجريه :

ـ هناك قتيلان ... !

ـ قتيلان ..

انه لمجهــود . مجهود ضخم ، ذلك الذى بذله مارتان ليظل مسيطرا على أعصابه بعد أن كان على وشك الانفعال من جديد .

ـ فى هذه الحالة أعتقد أنه يستحسن ..

ـ انه يستحسن ؟..

كان المفتش لا يكاد يتكلم . كان يحبس انفاسه . كان يحس بضيق بطبق على صدره ، لأنه كان يشعر أنه قريب من الحقيقة .

ـ أجل ـ دمدم بها مرتان لنفســــه ـ ليكن ! . فلا مفر .. لا مفر ..

ومع ذلك فقد سار بطريقة آلية حتى البـــاب المفتوح ، باب حجرة النوم ، وغطس نظرته فى الحجرة .

وظل ميجريه ينتظر ، ثابتا ، صامتا .

لم يقل مارتان شيئا ، ولم يسمع صوت زوجته ، ولم يمنع ذلك أن شيئا ماكان يبدو انه يجرى .

واستمر الحال طويلا ، فبدأ المفتش يفقد صبره .

ـ وبعـــد ؟

فتحول الرجل ناحيته ، فى بطء ، بوجه جديد .

ـ ماذا ؟

ـ كنت تقول أن ...

فحاول مارتان أن يبتسم .

ـ أن ماذا ؟

ـ انه يستحسن ، لتجنب مآس جديدة ..

ـ انه يستحسن ماذا ؟...

ومر بيده فوق جبينه ، كشخص يجـــد صعوبة فى اثارة ذكرياته .

ـ انا آسف ! انني مضطرب ..

ـ لدرجة انك نسيت ماكنت تريد أن تقوله ؟

ـ أجل .. لم أعد أدرى .. انظر ! . انها نائمة ..

كان يشير الى مدام مارتان التى أغلقت عينيها ، وغدا وجهها أحمر قانيا ، ربما بسبب وضع الثلج فوق جبينها .

ـ ما الذى تعرفه ؟

وجه اليه ميجريه هـــذا السؤال بلهجة من يخاطب شخصا مشبوها على قدر كبير من الحذق .

ـ أنـــا ؟

وبعد هذا الاستفسار أصبحت كل الاجابات من هذا النوع ! . الذى نطلق عليه « استعباطا » .

ـ كنت على وشك أن تخبرنى بالحقيقة .

ـ الحقيقـــة ؟

ـ هيا ! لاتحاول أن تبدو عبيطا . أنت تعرف قاتل كوشيه .

ـ أنا ؟ أنا أعرف ؟..

اذا كان مارتان لم يتلق فى حياته صفعة واحدة ، فقد كان اقاب قوسين أو أدنى من صفعة ساخنة يتلقاها من يد ميجريه .

أما ميجريه فكان يضغط على فكيه وينظر الى المرأة الساكنـه التى كانت نائمة أو كانت تتظاهر بالنوم ، ثم الى الرجـــل الذى لايزال جفناه منتفخين ، وملامحه مشدودة بتأثير الأزمة السابقة وشاربه مدلى .

ـ هل تتحمل مسئولية مايمكن ان يحدث ؟

ـ ماذا يمكن أن يحدث ؟

ـ انك مخطىء ياسيد مارتان !

ـ مخطىء لمـــاذا ؟

ماذا حدث ؟ ان الرجـــل الذى كان على أهبـــة الـكلام ، ظل دقيقة بين الحجرتين ، وعيناه مثبتتان على سرير زوجته ، ولم يسمع ميجريه شيئا ، ولم يتحرك مارتان . والآن ، هاهى ذى تنام ! وهو يتظاهر بالبراءة !

ـ اننى أعتذر لك .. أعتقد أننى أفقـــد صوابى فى بعض الأحيان .. وأنت لا تنكر أن الأمر يبعث على الجنون ..

ولم يمنع ذلك أنه ظل حزينا ، بل مغموما . كانت تبدو عليه هيئة شخص محكوم عليه . وكانت نظرته تحاول أن تتجنب وجه ميجريه ، وتتنقل بين الأشياء العادية ، وأخـيرا تعلقتـا بجهـاز اللاسلكى . فشرع يلتقط أجزاءه ، وقد أنحنى على الأرض موليا ظهره للمفتش :

ـ متى سيعود الطبيب ؟

ـ لا أدرى .. لقد قال « هذا المساء » ..

فخرج ميجريه تاركا الباب يصطك خلفه ، فوجد نفسه وجها لوجه أمام ماتيلد العجوز التى فزعت لذلك حتى أنها لبثت ساكنة وقد فغرت فاها .

ـ أليس لديك ماتقولينه لى ؟ أنت ؟ هيه ؟ هل ستدعين ايضا أنك لاتعلمين شيئا ؟..

وحاولت أن تستعيد ثباتها ، فأدخلت يديها تحت مئزرها ، فى حركة آلية لربة بيت عجوز .

ـ تعالى ندخل عندك ..

فسارت تزحلق نعلى اللباد فوق الأرض ، وترددت فى دفع بابها المنفرج .

ـ هيا ! ادخلى ..

ودخل ميجريه بدوره ، وأعاد اغلاق الباب بضربة من قدمه ، ولم يوجه نظرة واحدة الى المجنونة التى كانت تجلس أمام النافذة .

ـ والآن تكلمى !.. مفهوم ؟..

وتداعى بكل ثقله فوق أحد الكراسى .

- ٩ -

صاحب المعاش

أولا ، انهما يقضيان حياتهما فى عراك !

لم يتحرك ليجريه ساكن . لقد غاص حتى رقبته فى كلّ هذه القذارة اليومية ، التى تبعث على الاشمئزاز أكثر من المأساة نفسها .

وامامه العجوز ، يبدو عليها تعبير مخيف عن الابتهاج والتهديد كانت تتكلم وتنوى أن تتكلم ثانية ! عن بغض لآل مارتان ، وللقتيل واسكان البيت جميعا ، وعن بغض للانسانية جمعاء ! وعن بغض ليجريه نفسه ! .

كانت لاتزال واقفة ، ويداها مضمومتان فوق بطنها الضخم الطرى ، ويظن الناظر انها ظلت حياتها فى انتظار هذه اللحظة .

لم يكن مايطفو على شفتيها ابتسامة . وانما هو الاغتباط الذى كان يذيبها !

ـ « أولا » انهما يقضيان حياتهما فى عراك .

كان لديها وقت . كانت تقطر جملها تقطيرا . وكانت تعطى نفسها فسحة من الوقت لكى تعبر عن ازدرائها للناس الذين يتعاركون .

ـ ولا حتى مثل لمامى الخرق ! وهذا الوضع يرجع الى فترة طويلة ! حتى اننى تساءلت كيف لم يقتلها حتى الآن .

ـ آه : هل كنت تتوقعين أن ؟ .

ـ عندما يعيش المرء في منزل كهذا ، فيجب أن يتـــوقع كل شيء ..

كانت متنبهة الى نغمات صوتها . فهل كانت ابعث على البغض من السخرية ، ام أبعث على السخرية من البغض ؟

كانت الحجرة فسيحة . وكان بها سرير منكوش ، عليه ملاءات ومادية يبدو أنها لم تتعرض للهواء الطلق أبدا . ومنضدة ، ومرآة قديمة ، وموقد .

وفي كرسي-موسد ، تجلس المجنونة ، التي كانت تنظر امامها ، وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة رقيقة .

وسأل ميجريه :

ـ لامؤاخذة ! . هل تتلقين زيارات في بعض الأحيان ؟

ـ لا ! .

ـ واختك الا تخرج من هذه الحجرة ؟

ـ أحيانا ، تفر الى السلم ..

رائحة تبعث على القنوط . رائحة فقر قذر ، رائحة هـرم ، وربما رائحة موت .

ـ لاحظ أن الزوجة هي التي تهاجم دائما !

كان ميجريه يملك من القوة ما يكفي توجيه السؤال اليها . كان ينظر بغموض . كان ينصت لها .

ـ من اجل مسائل تتعلق بالمال ، طبعا ! . وليس من اجل مسائل تتعلق بها كامرأة .. مع أنها ذات مرة ، وهي تقوم بحســـاباتها ، افتـــرضت انه ذهب الى منزل خصوصي ، فتلون وجهـــه مائة لون ..

ـ هل تضربه ؟

كان ميجريه يتحدث بلا سخرية . لم يكن افتراضه هذا اكثـر هزءا من غيره . كان يسبح في بحر من الأعاجيب حتى ان اي شيء لم يكن ليثير الدهشة .

ــ لا اعرف ما اذا كانت تضربه أم لا ، ولكن ، على كل ، فهى تكسر الأطباق .. ثم تبكى ، قائلة انها لن تستطيع ان تحصل على بيت مناسب ..

ــ باختصـــار ، هل يحـــدث فى كل يوم فضـــائح من هـــذا القبيل ؟

ــ ليست فضائح كبيرة ! وانما بعض التوبيخ والتأنيب . وفى الأسبوع فضيحتان او ثلاث فضائح كبيرة .

ــ وهذا يعطيك فرصة للعمل !

لم تكن واثقة انها فهمت ونظرت اليه بقليل من القلق .

ــ ماهى التأنيبات التى توجهها اليـــه فى اغلب الأحيان ؟

ــ عندما لايملك المرء مايعول به امراة ، فانه لايتزوج !

ــ لايصح لرجل أن يخدع امراة فيجعلها تعتقد أنه سيثرى .. بينما الحقيقة غير ذلك .

ــ ان المرء لا يسمح لنفسه بالاستحواذ على امراة من رجل مثل كوشيه ، قادر على كسب الملايين ..

ــ ان الموظفين جبناء .. فيجب أن يعمل المرء بنفسه ، وأن يكون محبا للمخاطرة ، والمبادرة ، اذا أراد أن يحصل على شىء ..

مسكين مارتان ، بقفازه ، ومعطفـــه ، وشـــــاربيه المشـــمعين بالدهان .

واستطاع ميجريه ان يتخيل كل الجمل التى كانت تلقى بهـــا زوجته فوق راسه، مطرا دقيقا ، او سيلا غزيرا .

ومع ذلك ، فقد قام بما يستطيع ان يقوم به : ومن قبله ، كان كوشيه هو الذى يتلقى هذا التأنيب والتوبيخ . لابد انها كـــانت تقول له :

« انظر الى السيد مارتان ! انه لرجل ذكى ! وهو يفكر أنه ربما يتزوج ، فى يوم من الايام ولسوف تتسلم زوجته معاشا لو حدث له شىء ! بينما انت .. »

كان هذا كله يبدو في صورة تهمة جسيمة ! لقد خدعت مدام مارتان نفسها ، وخدعها الفير ، وخدعت الناس جميعا !

كان هناك خطأ مروع هو أساس كل شيء !

فقد كانت ابنة حلواني « سان مور » تريد المال ! هذا أمر قد تقرر ! وكان هذا الأمر يمثل ضرورة ! وكانت هي تشعر بذلك ! لقد ولدت لكي تحصل على المال ، ونتيجة لذلك ، فقد كان على زوجها أن يجني المال

أكان كوشيه لايجني مالاكافيا ؟ ولن يكون لها معاش لو مات ؟ لقد تزوجت من مارتان ! هذا كل مافي الأمر !

كل ما هناك أن كوشيه هو الذي أثرى بالملايين ، بعد فوات الأوان ! . ولم يكن من الممكن تركيب أجنحة لمارتان ، ولم يكن من الممكن دفعه الى أن يترك مكتب التسجيل وأن يعمل هو الآخر في بيع الأمصال أو أي شيء يدر الربح !

كانت شقية ! كانت دائما شقية ! وكانت الحياة تلهو بخداعها بطريقة شنيعة !

كانت عينا العجوز الخضراوان الضاربتان الى الزرقة ، مثبتتين على ميجريه ، كانتا كعيني قريص البحر .

ــ وهل كان يأتي ابنها لزيارتها ؟

ــ أحيانا .

ــ وهل كانت تلومه وتؤنبه هو الآخر ؟

ولا يغيب عنا أن العجوز ظلت تنتظر هذه اللحظة سنوات وسنوات ! . لم تكن بها عجلة ! . كان أمامها فسحة من الوقت ! .

ــ كانت تقدم له النصح ..

« أبوك غني ! وكان عليه أن يخجل لأنه لم يدبر لك مركزا مرموقا! انك حتى لاتملك سيارة .. فهل تعرف من السبب ؟ انها تلك المرأة التي تزوجته من أجل ماله ! . لأنها لم تتزوجه الا من أجل ذلك ! »

« مع غض النظر عن أن الله وحده يعلم ما تعد لك في المستقبل ، فهل تظن انك ستحصل على شيء من الثروة التي تخصك ؟ »

« لذلك فيجب عليك الآن أن تستحوذ على المال ، وأن تدخره في مكان امين ..

« سأحفظه لك ، انا ، لو أردت .. ها ! . هل تحب أن احفظه لك ؟.. »

وكان ميجريه ، وهو يتطلع الى الأرض القذرة .. يفكر ، ورأسه في ثورة .

كان يعتقد أنه توصل ، فى هذا الخليط من الاحساسات ، الى احساس سائد ، ربما ولد بقية الاحساسات الأخرى : انه القلق ! قلق وبيل ، يبعث على السقم ، ويقترب من الجنون ..

كانت مدام مارتان تتحدث كثيرا عما يمكن أن يقع : موت الزوج ، والشقاء الذى ستلقاه اذا لم يترك لها معاشا .. وكانت تشفق على ابنها من هذا الشقاء ..

كان الأمر أشبه بكابوس مخيف ، أو بفكرة ملكت عليها دنياها .

ــ وبم كان يجيبها روجيه ؟

ــ كان لا يلبث طويلا ! . كان يبدو أن لديه اعمالا أهم فى الخارج ..

ــ وهل حضر يوم الجريمة ؟

ــ لست أدرى .

ومن ركنها ، كانت المجنونة ، وهى فى مثل هرم ماتيلد ، لاتزال تتطلع الى المفتش وهى تبتسم ابتسامة جذابة .

ــ وهل دار بين مارتان وزوجته فى ذلك اليوم نقاش أكثر اهمية من المعتاد ؟

ــ هل نزلت مدام مارتان فى حوالى الثامنة مساء ؟

ــ لم اعد اذكر ! . اننى لا استطيع أن اظل طوال الوقت فى الممر .

هل كان ذلك عدم ادراك ، هل كان سخرية فائقة ؟ . على كل ، فقد كانت تحتفظ بشىء لم تصرح به . وكان ميجريه يشعر بذلك . أن الصديد كله لم يخرج تماما !

ـ فى المساء ؟ تعاركا ..
ـ لماذا ؟
ـ لست أدرى ..
ـ الم تسمعيهما ؟
لم تجب . وكان تعبير وجهها يقول :
ـ هذا شىء يخصنى !
ـ وماذا تعرفين أيضا ؟
ـ اعرف لماذا مرضت !
وكان هــذا هو الفوز ! . كانت يداها ترتجفان ، ولا تزالان مضمومتين فوق بطنها .
كان هذا غاية طريق بأسره .
ـ لماذا ؟
كان هذا السؤال يتطلب تلذذا .
ـ لأن .. انتظر حالما اسأل اختى عما اذا كانت فى حاجة الى اى شىء .. « فانى » الست ظمأى .. جوعى ؟ . اليس ساخنا جدا ؟ ..
كان موقد الزهر أحمر تماما ، فراحت العجوز تسعى فى الحجرة وهى تزلق على نعليهـا المصـنوعين من اللباد ، واللذين لايصدران اية ضوضاء .
ـ لأن ؟
ـ لأنه لم يحضر النقود !
لقد تهجت هذه الجملة واتبعتها بصمت نهائى . انتهى كل شىء لقد اعرضت عن الكلام ! لقد قالت مافيه الكفاية .
ـ اية نقود ؟
مجهود ضائع فانها لن تجيب على اى سؤال .
ـ هذا شىء لا يخصنى ! . لقد سمعت هذا ! . ولتفعل انت به ما تريد .. والآن حان الوقت لكى اعتنى باختى ..

وانصرف ، تاركا وراءه العجوزين منصرفتين الى أمور لايعلمها الا الله .

لقد اعتــل الملك .. وتقلب قلبـــه ، كما لو كان أصابه دوار البحـــر .

« لم يحضر النقود .. »

الا يمكن تفسير ذلك ؟ لقد قرر مارتان أن يسرق الزوج الأول وبما لكيلا يلام على وضاعته .. وراته هي من النافذة .. وخرج هو بثلثمائة وستين ورقة .. ولـكنه عندما عاد ، لم تكن النقود معه ! فهل وضعها في مكان أمين ؟ أم سرق هو بدوره ؟ أم تملـكه الخوف فتخلص من هذه النقود بالقائها في نهر « السين » ؟ وهل قام بالقتل ؟ هو ، السيد مارتان الضئيل ، ذو المعطف المطاط ؟

لقد اراد أن يتكلم منذ برهة . وكان الارهاق الذى يشعر به هو ارهاق شخص جان لم يعد يجد فى نفسهالقوة لكى يلزم الصمت، ويفضل السجن فورا عن قلق الانتظار .

ولكن لماذا كانت زوجته هى التى مرضت ؟

وبالأخص لماذا كان روچيه هو الذى انتحر ؟

ثم ، اليس خيا ميجريه هو الذى صور كل هذا ؟ لماذا لاير تاب فى « نين » ، أو فى مدام كوشيه ، أو حتى فى العقيد ؟

وبينما كان المفتش ينزل السلم ، اصطدم بالسيد سان ــ مارك الذى كان عائدا من الخارج .

ــ آه ! هذا أنت ..

ومد له يدا مجاملة .

ــ اثمة جديد ؟ .. هل تعتقـــد ان الموضوع سينتهى ؟..

ومن فوق ، سمعت صرخة المجنونة ، التى لابد أن تكون أختها قد تركتها لكى تذهب فتتخذ مخفرها خلف احد الأبواب !

***

كانت جنازة رائعة . اشترك فيها كثير من علية القوم . وبخاصة عائلة مدام كوشيه وجيران شارع الهوسمان .

لم يكن يشذ عن المجموع الا اخت كوشيه ، التى كانت تسير في الصف الأول ، مع أنها عملت المستحيل لكى تبدو أنيقة . كانت تبكى . وكان لها بوجه خاص طريقة مزعجة فى التمخط ، كانت تستجلب لها فى كل مرة نظرة ساخطة من حماة القتيل .

وخلف العائلة مباشرة ، كان موظفو معامل الأمصال .

وكانت ماتيلد العجوز تسير مع الموظفين فى كبرياء ، واثقة من نفسها ومن حقها فى الحضور . وكان ثوبها الأسود لايصلح الا لذلك: ... تشييع الجنازات ! وتلاقت نظرتها مع نظرة ميجريه . فتنازلت وأومأت له ايماءة خفيفة .

كانت تتدفق أصوات الأراغن وصوت المرتل الجهير ، وصوت الشماس الحاد : « ولاتدخلنا فى تجربة .. » وسمعت ضوضاء كراسى تتحرك . وكان النعش عاليا ، ومع ذلك فقد كان يختفى تحت الزهور والأكاليل .

« سكان المنزل رقم ٦١ ، ميدان الفوج » .

ويبدو ان ماتيلد دفعت حصتها فى الاكليل . فهل سجل آل مارتان اسمهما فى قائمة المساهمين ، هما أيضا ؟

لم ير احد مدام مارتان . فقد كانت لاتزال فى سريرها .

« خلصنا ، يارب .. » وحان موعد صلاة الجنازة . النهاية . فتقدم رئيس التشريفات الذى كان يقود الركب فى بطء . وفى أحد الأركان ، بالقرب من كرسى اعتراف ، لمح ميجريه « نين» وكان أنفها أحمر قانيا دون ان تكلف نفسها مشقة معالجته بذرة من المسحوق فقالت :

ـ شىء فظيع ، أليس كذلك ؟

ـ ماهو الفظيع ؟

ـ كلّ شيء ! لست ادري ! هذه الموسيقى .. ورائحة الأقحوان هذه ..

كانت تعض شفتها السفلى لكى تحبس زفرة .

ـ وكما تعلم .. لقد فكرت طويلا .. ايه حسن ! ويحدث أن اقول لنفسى ان قلبه كان يحدثه ..

ـ هل ستذهبين الى القبر ؟

ـ مارايك ؟ من الممكن ان يرونى هناك ؟.. قد يكون من الافضل الا اذهب . ومع ذلك فاننى احب ان اعرف المكان الذى سيودعونه فيه .

ـ يكفى أن تسالى الحارس .

ـ اجل ..

كانا يتهامسان . كانت خطوات آخر الحاضرين تخف فى الجهة الأخرى من الباب . وشرعت بعض العربات فى المسير .

ـ كنت تقولين ان قلبه كان يحدثه ؟

ـ ربما ليس لانه سيموت بهذه الطريقة .. ولكنه كان يدرك أنه لن يعمر طويلا .. فقد كان مصابا بمرض خطير فى القلب .

كان الناظر يشعر أنها فى قلق شديد ، وان عقلها ظل ساعات وساعات لايدور الا حول موضوع واحد .

ـ كلمات كان يقولها وتمر الآن بخاطرى ..

ـ هل كان خائفا ؟

ـ لا ! بالعكس . فعندما كان يتصادف أن نتحدث عن القبر ؟ كان يقول ضاحكا :

« ـ انه المكان الوحيد الذى يطمئن فيه الإنسان .. مكان صغير جميل بجوار الأب لاشيز .. »

ـ هل كان يمزح كثيرا ؟

ـ بخاصة عندما لا يكون مبتهجا .. هل تفهم ؟.. كان لا يحب

أن يلاحظ الناس أنه مهموم . عندئذ ، كان يبحث عن أى سبب لكى يتحرك ، لكى يضحك ..

ـ عندما كان يتحدث عن زوجته الأولى ، مثلا !

ـ أنه لم يحدثنى عنها مطلقا !

ـ ولا عن الأخرى ؟

ـ لا .. كان لا يتحدث عن شخص بالذات . كان يتحدث عن الناس عامة .. كان يرى أنهم حيوانات صغيرة مضحكة .. واذا حدث أن سلبه عامل المطعم شيئا ، فانه ينظر اليه بعين أكثر عطفا من الآخرين .. ويقـول :

ـ نذل ! ..

« وكان ينطق بهذه الكلمة وهو يلهو مسرورا ! »

كان الجو باردا . طقس « توسان » . ولم يكن لدى ميجريه ونين مايفعلانه فى حى سان ـ فيليب ـ دى رول هذا .

ـ الى اللقاء فى المولان بلو ، هه ؟

ـ ليكن !

ـ سأمر بك ذات مساء ..

وشد ميجريه على يدها ، ثم قفز فى احدى سيارات الأوتوبيس كان فى حاجة للخلو الى نفسه ، والتفكير ، أو بالأحرى كان فى حاجة لأن يترك لعقله الحبل على الغارب . وراح يتخيل الموكب الذى لن يلبث أن يبلغ المقابر .. ومدام كوشيه .. والعقيد .. والأخ .. والأشخاص الذين يمكن ان يناقشوا الوصية الغريبة .

ـ ماذا كانا يحوكان حول صناديق القمامة ؟

فهنا تكمن عقدة المأساة .. لقد حام مارتان حول صناديق القمامة بحجة البحث عن قفاز لم يجده ، ومع ذلك كان يرتديه صباح اليوم التالى . وفتشت مدام مارتان فى القاذورات ، هى الأخرى ، مدعية البحث عن ملعقة من الفضة ألقيت عفوا ..

ـ .. « لأنه لم يعد بالنقود .. »

هكذا قالت ماتيلد العجوز ».

فعلا فى هذه اللحظة سيكون الامر مسليا فى ميدان الفـــوج ! والمجنونة التى تركت وحيدة ، الا تعوى كعادتها ؟

وكان الأتوبيس كامل العدد ، يحرق المحطات . وسمع راكبا ، كان قريبا من ميجريه وهو يقول لصاحبه :

ــ هل قرات قصة الأوراق المالية فئة الألف الفرنك ؟

ــ لا ! . ما هذه الحكاية ؟

ــ تمنيت لو كنت هناك .. عند جسر بوچيفال .. صباح أول امس .. اوراق مالية فئة الألف الفرنك تتمخطر مع التيار .. كان أول من راها ملاح ، وقد استطاع أن يلتقط بعضها .. ولكن عامل الهاويس لاحظ الأمر .. فاستدعى الشرطة .. حتى أن احد رجال الشرطة كان يرقب صيادى النقود .

ــ صحيح ؟ . ولم يمنعهم ذلك من الاستيلاء على بعضها ..

ــ وقالت الصحيفة اليومية انهم عثروا على نحو ثلاثين ورقة ، لكنة لابد ان هناك اوراقا اخرى كثيرة ، لأنهم استطاعوا فى «نانت» أيضا أن يلتقطوا ورقتين .. هيه ! الأوراق المالية التى تتمخطر على طول مجرى السين ! .. انها أعظم من السمك البورى ..

ولم يتحرك لميجريه ساكن .. كان له رأس زيادة عن الناس ، وكان وجهه هادئا .

ــ .. « لأنه لم يعد بالنقود .. »

اذن ، هذا هو بيت القصيد ؟ ترى هل استولى الخوف على مارتان أو انبه ضميره لذكرى جريمته ؟ مارتان الذى صرح بانه كان يتنزه فى ذلك المساء فى جزيرة سان ــ لوى ليطرد آلامه العصبية .

ومع ذلك فقد ندت عن ميجريه ابتسامة ، لأنه تخيل مدام مارتان التى رات كل شىء من نافذتها والتى كانت تنتظره .

ثم عاد زوجها ، متعبا ، خائرا . كانت تتابع افعاله وحركاته ،

وكانت تنتظر أن ترى الأوراق المالية ، وربما كانت تنتظر أن تعدها ..

وخلع ملابسه وتهيأ للنوم .

اليست هى التى تناولت ملابسه وراحت تنقب فى جيوبها ؟

وبدأ القلق .. كانت تتطلع الى مارتان بشاربيه الحزينين .

ـ ال .. ال .. النقود ؟

ـ اى نقود ؟ ..

ـ لمن أعطيتها ؟ . رد ! . لا تحاول ان تكذب ..

وغادر ميجريه الأتوبيس عند « البون نوف » ومن هناك استطاع ان يلمح نوافذ مكتبه . وفى أثناء ذلك فوجىء بنفسه يقول بصوت خافت :

ـ أؤكد ان مارتان ، ما ان رقد فى سريره ، حتى شرع فى البكاء !..

« ١٠ »

اوراق تحقيق الشخصية

بدا هذا فى « جومون » . كانت الساعة تشير الى العاشرة مساء وكان بعض مسافرى الدرجة الثالثة يتوجهون ناحية مكاتب الجمرك بينما شرع الموظفون فى تفتيش عربات الدرجة الأولى والثانية .

وثمة نفر من المسافرين المدققين يعدون حقائبهم مقدما ، فيعرضون امتعتهم فوق المقعد الصغير . وكان هذا مافعله رجل قلق العينين من الدرجة الثانية ، كان يجلس فى عربة لم يكن بها سواه ، الازوجان بلجيكيان متقدمان فى السن .

كانت امتعة هذا الرجل تمثل نموذجا للنظام والحيطة . فالقمصان ، تلافيا للأتساخ ، كانت ملفوفة فى جرائد يومية . وكان هناك اثنا عشر زوجا من الأكمام ، وسراويل ثقيلة ، واخرى صيفية ، ومنبه ، واحذية وخفان قديمان .

وكان المرء يشعر بيد امراة ، وراء هـذا الترتيب . فلم يكن هناك موضع لم يستغل . ولم يكن هناك شىء يمكن أن يتجعد أو ينثنى . وقلب احد موظفى الجمرك فى هذه الأشياء باهمال ، وهو يرقب الرجل الذى يرتدى المعطف المطاط والذى يملك مثل هذه الأمتعة .

ـ شكرا !

وخط على الأمتعة صليبا بالطباشير .

ـ اى طلب ، انتما الآخران ؟

فسأل الرجل قائلا :
ـ لا مؤاخذة ! . أين تبدأ بلجيكا بالضبط ؟
ـ هل ترى أول سياج هناك ؟ كلا ! انك لا ترى شيئا ! ولكن انظر .. عد المصابيح .. والثالث الى اليسار .. هو الحد الفاصل .
كان هناك صوت فى الدهليز ، يكرر أمام كل باب :
ـ اعدوا جوازات السفر ، والبطاقات الشخصية !
وبذل رجل المعطف المطاط مجهودا كبيرا ليعيد وضع حقائبه فى الشبكة .
ـ جوازك ؟
فالتفت فرأى رجلا يضع على رأسه قبعة رمادية .
ـ فرنسى ؟ . بطاقتك الشخصية .
واستغرق ذلك عدة لحظات . كانت أصابع المسافر تنقب خلالها فى الحافظة .
ـ ها هو ذا يا سيدى !
ـ عظيم ! مارتان ادجار اميل .. عظيم ! . اتبعنى ..
ـ الى أين ؟
ـ يمكنك أن تحمل حقائبك ..
ـ ولكن .. القطار ..
وهنا راح البلجيكيان ينظران اليه بفزع ، مضطرين رغما عن ذلك ، فقد صحبا فى سفرهما أحد المزورين .. وراح مارتان ، وقد اتسعت حدقتاه ، يرتقى المقعد ليتناول حقائبه .
ـ أقسم لك .. ما الذى ؟ ...
ـ أسرع .. فسيرحل القطار ..
وراح الشاب ذو القبعة الرمادية يدحرج أثقل حقيبة على رصيف المحطة . كان الظلام شاملا . وعلى ضوء هالات المصابيح ، كان بعض الأشخاص يهرولون ، عائدين من المقصف . ودوى صوت الصفارة .. وكانت هناك سيدة تتحدث مع بعض موظفى الجمرك الذين كانوا لا يسمحون لها بالرحيل .

ـ سنرى ذلك صباح غد .

وكان السيد مارتان يتبع الشاب وهو يحمل حقائبه بصعوبة .
انه لم يتصور فى حياته رصيفا بهذا الطول . كان حقا ميدان سباق لا ينتهى ، خاليا ، محاطا بأبواب سرية .

وأخيرا ، دفع الباب الأخير :

ـ ادخل ! .

كان ظلاما دامسا . لم يكن ثمه غير مصباح فى مشكاة خضراء ، معلق فوق المنضدة ، وكان من الانخفاض بحيث لم يكن يضىء الا بعض الأوراق . ومع ذلك فقد كان فى أقصى الحجرة شىء ما يتحرك . ثم سمع هذا الصوت الودود :

ـ صباح الخير يا سيد مارتان ! .

ثم برز فى الظلمة شبح ضخم : انه المفتش ميجريه متدثرا فى معطفه الثقيل ذى الياقة القطيفة ، ويداه ، فى جيبيه .

ـ لا داعى للمضايقة . سنأخذ من جديد قطار باريس الذى سيصل بعد قليل على الخط الثالث ..

فى هذه المرة كان الأمر أكيدا ! . كان مارتان يبكى ، فى صمت ، ويداه ثابتتان بسبب الحقائب التى أحسن ترتيبها .

***

كان المفتش ، الذى كان يتولى مراقبة المنزل رقم ٦١ ، بميدان الفوج ، قد اتصل بميجريه تليفونيا ، قبل ذلك بعدة ساعات .

ـ صاحبنا فى طريقه للهرب .. لقد ركب سيارة أجرة واتجه بها الى محطة الشمال ..

ـ دعه يهرب .. واستمر فى مراقبة المرأة ..

واخذ ميجريه نفس القطار الذى ركبه مارتان . ونزل فى الديوان المجاور ، مع اثنين من ضباط الصف ، ظلا طوال الطريق يقصان المغامرات الغرامية .

ومن آن لآخر كان المفتش يلصق عينه بالفتحة التى تفصل بين الديوانين فيلمح مارتان حزينا .

وفى « جومون » كانت حادثة البطاقة الشخصية ! . والدخول فى مكتب المفتش المختص .

والآن هما ذان يعودان الى باريس ، فى ديوان خاص . كانت يدا مارتان خاليتين من القيود . وكانت حقائبه فى الشبكة فوق راسه ، وكانت احداهما غير محكمة الوضع ، فكانت تهدد بالسقوط فوقه .

وحتى « موبوج » لم يكن ميجريه قد وجه سؤالا واحدا .

كان امرا يختلط له العقل ! . كان قابعا فى أحـد الأركان ، وغليونه بين أسنانه .

وكان لايكف عن التدخين وهو يرقب صاحبه بعينيهالصغيرتين اللاهيتين .

عشر مرات ، بل عشرون مرة ، فتح مارتان فمه دون أن يقرر الكلام ، وعشر مرات بل عشرون مرة ، لم يتنبه له المفتش .

ومع ذلك فقد حدث هذا اخيرا : صوت لايمكن وصفه ، وقد لاتستطيع مدام مارتان نفسها أن تتعرف عليه .

ـ انا الذى ...

وكان ميجريه لايزال معرضا عن الكلام ، كانت حدقتـاه تقولان :

ـ صحيح ؟ ..

ـ كنت .. كنت آمل ان اجتاز الحدود ..

هناك طريقة للتدخين بنقبض لها من ينظر الى الشخص الذى يدخن : ففى كل نفخـة تتفرج الشفتان فى تلذذ .. ولا يندفع الدخان الى الأمام ، ولكنه يتبدد فى بطء ، مكونا سحابة حول المدخن .

كان ميجريه يدخن بهذه الطريقة وراسه يتمايل ذات اليمين وذات الشمال تبعا لحركات العربة .

ومال مارتان ، ويداه البائستان فى القفاز ، وعيناه تفيضان بالحمى .

ـ هل تعتقد أن هذا سيستغرق طويلا ؟ كلا ، أليس كذلك ؟ مادمت سأعترف .. لأنني سأعترف بكل شيء ..

ماذا كان يفعل حتى لايبكي ؟ لابد أن أعصابه كانت تذيقه المر مريرا . ومن آن لآخر كانت عيناه تبـــدوان متوسلتين ، تقولان لميجريه بكل وضوح ؟

ـ ساعدني اذن !.. انك ترى أن الارهاق قد بلغ مني مأربه .

ولــكن المفتش كان لايتحــرك . وكان ، بهــدوئه ، ونظرته الفضولية التي تخلو من كل عاطفـــة ، كأنه يقف في حديقـــة للحيوانات ، أمام قفص بداخله حيوان غريب .

ـ لقد فاجأني كوشيه .. عندئذ .

وتنهد ميجريه ، تنهيدة لا تريد أن تعبر عن شيء ، أو بالأحرى يمكن أن تفسر بمائة طريقة مختلفة ..

« سان ـ كانتان » ! وسمعت خطوات أقـــدام في الممر ، وحاول مسافر ضخم أن يفتح باب الديوان ، فلاحظ انه مغلق ، فلبث لحظة ينظر الى الداخل ، وأنفه ملتصق بالزجاج ، وأخيرا قرر أن يبحث عن مكان آخر .

ـ مادمت سأعترف بكل شيء ، أليس كذلك ؟ لاداعي للانكار !

تماما كما لو كان يتحدث الى شخص أصم ، أو الى شـــخص لا يفقه حرفا واحدا من الفرنسية ، كان ميجريه يحشو غليونه ، ويدس فيه التبغ بسبابته بطريقة دقيقة !

ـ هل معك ثقاب ؟

ـ لا ! انا لا ادخن ، كما تعرف ، ان زوجتي هي التي لا تحب رائحة التبغ ، أحب ان ينتهي الأمر بسرعة ، هل تفهم ؟ ســأقول ذلك للمحامي الذي سأختاره ، لاداعي للتعقيدات ! سأعترف بكل شيء . لقــد قرأت في الصحيفة اليومية انهم عثروا على جزء من الأوراق المــالية ، انني لا اعرف لمــاذا فعلت ذلك ، فعندما كنت أشعر بها في جيبي ، كان يلوح لي أن كل من في الطريق ينظرون الي .. ففكرت أولا أن اخفيها في مكان ما .. ولكن لمــاذا أفعل ذلك ؟..

« سرت بحذاء الرصيف .. كانت هناك بعض الزوارق .. فخشيت أن يرانى أحد البحارين .

« عندئذ عبرت جسر مارى . وفى جزيرة « سان ـ لوى » استطعت أن أتخلص من الحزمة ... »

كان الديوان ساخنا للغاية ، كان البخار يسيل فوق الزجاج، وكان دخان الفليون يتمدد حول المصباح .

« كان يجب أن أعترف لك بكل شىء فى المرة الأولى التى رأيتك فيها .. لم تكن لدىّ الشجاعة .. وكنت آمل أن ... »

وصمت مارتان ، وتطلع بفضول الى صاحبه الذى كان قد فغر فاه وأغمض عينيه ، وراح يتنفس بصوت رتيب أشبه بمواء قط كبير مغتبط .

كان ميجريه نائما !

والقى الآخر نظرة على الباب ، الذى يكفى أن يدفعه ، وكما لو كان أراد أن يهرب من الغواية ، انزوى فى احد الأركان وهو يضم فخذيه ، ويداه الجزعتان فوق ركبتيه النحيفتين .

محطة الشمال . صباح يوم رمادى . وسكان الضاحية الذين استيقظوا متأخرين ، يعبرون الأبواب فى جماعة .

كان القطار قد توقف بعيدا عن بهو المحطة . كانت الحقائب ثقيلة . وكان مارتان لا يريد أن يتوقف . كان منهك القوى وكانت يداه تؤلمانه .

واضطرا للانتظار طويلا حتى تمر احدى سيارات الأجرة .

ـ هل انت ذاهب بى الى السجن ؟

لقد أمضيا خمس ساعات فى القطار لم ينطق ميجريه خلالها عشر جمل . بل ادهى من ذلك ! فقد كانت جملا لا علاقة لها بالجريمة ، ولا بالثلثمائة وستين الف فرنك ! . كان يتحدث عن غليونه ، أو عن حرارة الجو ، أو عن موعد الوصول .

ـ ٦١ ميدان الفوج !

قالها ميجريه للسائق .

فقال مارتان متوسلا ؟
ـ اتعتقد انه من الضرورى أن ..»
ثم ، قال لنفسه «
« ماذا سيظنون فى المكتب ؟ . لم يكن لدى وقت لابلاغهم » »
كانت الحارسة فى مسكنها ، تفرز البريد : كومة كبيرة من الخطابات لمعامل أمصال الدكتور ريفيير ، وكومة صغيرة لبقية سكان المنزل .
ـ سيدى مارتان ! . سيدى مارتان ! . لقد حضر بعضهم من مكتب التسجيل ليسأل عما اذا كنت مريضا .. فيبدو أن معك مفتاح الـ ...
كان ميجريه يسحب صاحبه الذى اضطر الى جر حقائبه الثقيلة على السلم حيث كانت توجد أمام الأبواب بعض آنية بها لبن وخبز طازج .
وتحرك باب «ماتيلد» العجوز .
ـ اعطنى المفتاح .
ـ ولكن ...
ـ افتح انت بنفسك .
وحل صمت عميق ، قطعه صرير لسان القفل ، ثم بدت حجرة الطعام منظمة ، وكل شىء فى مكانه بالضبط .
وتردد مارتان طويلا قبل أن ينطق بصوت خافت يقول :
ـ هذا أنا !... والمفتش ...
وتحرك شخص فى السرير الموجود فى الحجرة المجاورة . وما أن أغلق مارتان الباب ، حتى تأوه قائلا :
ـ ما كان يجب علينا أن ... انها ليس لها دخل فى ذلك اليس كذلك ؟... وفى حالتها هذه ...
كان لا يجرؤ على دخول الحجرة . راح يلتقط الحقائب ويضعها فوق كرسيين لكى يحافظ على اتزانه .
ـ هل تحب أن أصنع قهوة ؟

وطرق ميجريه باب حجرة النوم •

ـ .. ممكن ادخل ؟

ولم يتلق ردا ، فدفع الباب ، فتلقى فى صميم وجهه نظرة ثابتة من عينى مدام مارتان التى كانت راقدة ، بلا حراك ، وشعرها فى « الفرشينات » •

ـ آسف زعاجك ••• لقد أعدت اليك زوجك •

كان مارتان ماثلا خلفه • كان يحس به ، ولكنه لايستطيع أن يراه •

وسمع وقع أقدام فى الفنـاء ، وأصواتا ، وبخاصة أصوات نساء : انهم موظفو المكاتب والمعامل الذين كانوا يصلون • كانت الساعة تشير الى التاسعة الا دقيقة •

وعن قرب ، سمعت صرخة مكتومة للمجنونة • وعلى منضـدة السرير ، كان ثمة بعض الأدوية •

ـ هل ساءت حالك ؟

كان يدرك تماما أنها لن تجيب ، وأنها ستتشبث على الرغم من كل شيء بتحفظها الشرس • كان يبدو أنها تخشى أن تنطق بكلمة ، بكلمة واحدة ! وكأن الكلمة الواحدة يمكن أن تجلب المصائب !

كانت قد هزلت . وغدا لونها أكثر شحوبا . غير أن عينيها .. هاتين الحـدقتين الرماديتين ، كانتا تحتفظان بحياتهما الخاصـة ، المتوهجة ، العنيدة •

ودخل مارتان ، بساقين خائرتين • وكانت هيئته كلها تدل على أنه يعتذر ، ويطلب المغفرة •

وراحت العينان الرماديتان تتحولان ناحيته فى بطء ، جامدتين، قاسيتين ، حتى أنه أشاح بوجهه وهو يقول متلعثما :

ـ فى محطـة « چومون » ••• دقيقـة واحدة وكنت سأبلغ بلچيكا •••

كان لابد من كلمات ، وجمل ، وضوضاء لشغل كل هذا الفراغ الذى كان يبدو أنه يحيط بكل شخصية . فراغ كان ملموسا لدرجة أن الأصوات كانت ترجع الصدى ، وكأننا تحت نفق أو فى مغارة .

ولكنهم كانوا لا يتكلمون . كانوا فقط يتشدقون ببعض المقاطع ، بعيون قلقة ، ثم يخيم الصمت كما يطبق الضباب .

ومع ذلك فقد كان هناك شيء ما يجرى ، شيء بطيء ، خفى : يد تزحف تحت الغطاء ، وترتفع فى حركة غير ملموسة حتى تبلغ الوسادة .

كانت هذه يد مدام مارتان ، النحيلة ، المبللة . وكان ميجريه ، وهو ينظر الى مكان آخر ، يتابع تقدم اليد ، وينتظر اللحظة التى تصل فيها الى غايتها .

ــ ألن يأتى الطبيب هذا المساء ؟

ــ لست أدرى .. وهل هناك من يهتم بى ؟ . اننى هنا كحيوان يتركونه للموت .. ولكن العين غدت أكثر بريقا لأن اليد لمست أخيرا ما كانت تبغى .

وسمع حفيف ورقة لا يكاد يبلغ الآذان .

وتقدم ميجريه خطوة ، وامسك مدام مارتان من معصمها .. كانت تبدو بلا قوة ، وربما بلا حياة . ولم يمنع ذلك أنها بين لحظة واخرى كانت تبرهن عن قوة خارقة ..

كانت لا تريد أن تترك ما بيدها . وكانت تدافع بغيظ ، وهى جالسة فوق السرير . وراحت تقرب يدها من فمها . وتمزق بأسنانها الورقة البيضاء التى كانت تضغط عليها .

ــ دعنى ! . دعنى والا صرخت ! . وأنت ؟ . أتتركه يفعل ذلك ؟ .

ــ سيدى المفتش .. اتوسل اليك ..

تأوه بها مارتان .

كان يصغى .. فقد كان يخشى أن يأتى السكان مهرولين .. ولم يكن يجرؤ على التدخل .

ــ أيها الوحش ! . أيها الوحش القذر ! . تضرب امرأة ؟ .

كلا ! . لم يكن ميجريه يضربها . كان مكتفيا بامساك يدها ، وربما مع ضغط على رسغها بشيء من القوة ، لكى يمنعها من ابادة الورقة .

ـ الا تخجل ! . تضرب امرأة تحتضر ..
امرأة كانت تبذل مجهودا قلما صادف مثله ميجريه خلال فترة خدمته كضابط ! . وسقطت قبعته على السرير . لقد عضت المفتش في رسغه فجأة .
ولكنها لم تستطع أن تستمر مشدودة الأعصاب طويلا ، ونجح ميجريه في ابعاد أصابعها ، بينما راحت هي تطلق أنه ألم .
والآن ها هي ذي تبكي ، تبكي دون أن تبكي ، أتبكي سخطا ، أو غيظا أو ربما لكي تتخذ موقفا ؟ .
ـ وأنت ، تتركه يفعل ذلك ..
كان ظهر ميجريه عريضا جدا بالنسبة للحجرة الضيقة . كان يلوح أنه يملأ الفراغ كله ، ويحجب الضوء .
واقتـرب من المـدفأة ، ونشر الورقة التى زالت أجزاء من اطرافها ، وقرأ نصا مكتوبا بالآلة الكاتبة ، تعلوه هذه العبارة :
« لافال وبيوليه
من محامى باريس
مستشاران
مكتب قضائى »
والى اليمين ، باللون الأحمر ، كانت هذه العبارة : « قضية كوشيه ومارتان . استشارة بتاريخ ١٨ نوفمبر » .
صفحتان مقتضبتان ، مع مسـافات بين الأسـطر . لم يقرأ ميجريه منها الا أجزاء ، بصوت خافت ، وكانت أصـوات الآلات الكاتبة تأتى من مكاتب أمصال ريفيير .
« بعد الاطلاع على القانون ...
ونظرا لأن انتحار روجيه كوشيه كان لاحقا لمقتل أبيه ..
.. وأن وصية لا يمكن أن تهضم ابنـا شرعيا نصيبه الذى هو من حقه ..
.. وأن الزواج الثانى لصاحب الوصية من السيد «دورموى» قد تم فى عهد روكية الأموال ..
.. وأن الوارث الطبيعى لروجيه كوشيه هو والدته ..

.. نتشرف بأن نؤكد لكم أن من حقكم المطالبة بنصف الثروة التى تركها أوسكار كوشيه من منقولات وعقارات .. وانه ، طبقا لمعلوماتنا الشخصية ، فنحن نرى ، ما عدا الخطأ ، ان المصنع المعروف باسم الدكتور « رفيير » ، يقدر بحوالى خمسة ملايين ، وكان قبلا يقدر بثلاثة ملايين ..

...

« .. ونحن فى خدمتكم للقيام بجميع الاجراءات اللازمة لابطال الوصية و ...

...

نؤكد لكم اننا نحتفظ لأنفسنا بالحق فى عمالة تقدر بعشرة فى المائة (١٠٪) من المبالغ المستردة وذلك كمصاريف لـ .. » .

***

كانت مدام مارتان قد كفت عن البكاء ، وكانت قد عادت الى رقادها ، وراحت نظرتها الجامدة تتطلع الى السقف من جديد .

كان مارتان يقف فى اطار الباب وهو أشد ما يكون حيرة ، لا يدرى ماذا يصنع بيديه ، وعينيه ، وجسده جميعا .

ودمدم ميجريه لنفسه قائلا :

ـ هناك حاشية ! .

وكانت هذه الحاشية مسبوقة بهذه العبارة : « سرى للغاية »

« نحن نعتقد أن مدام كوشيه ، من عائلة دورموى » ، مستعدة ، هى الأخرى ، للتطعن فى الوصية .

ومن جهة أخرى ، قمنا بالاستعلام عن المستفيدة الثالثة ، وهى نين مونار .

انها امرأة متشككة ، ولم تتخذ بعد اى اجراء للمطالبة بحقوقها .

ونظرا لأنها الآن بلا مورد ، فقد بدا لنا ان أجدى طريقة هى أن نعرض عليها اى مبلغ على سبيل التعويض .

ونحن من جانبنا نقدر هذا المبلغ بعشرين الف فرنك ، وهو مبلغ من شأنه أن يغرى شخصا فى مثل حالة نين مونار .

ونحن فى انتظار قراركم بشأن هذا الموضوع .. » .

كان ميجريه قد ترك غليونه ينطفىء . ثم طوى الورقة ببطء ، ودسها فى حافظته . ومن حوله كان يخيم صوت مطبق . وساءت حال مارتان حتى أنه حبس أنفاسه . وكانت زوجته ، على السرير ، بنظرتها الثابتة ، تبدو كالميتة .

ودمدم ميجريه يقول :

ـ مليونان وخمسمائة الف فرنك .. مع خصم مبلغ الخمسة والعشرين الف فرنك التى ستأخذها نين لكى تتساهل .. صحيح أن مدام كوشيه ستدفع نصفه ..

كان متأكدا أن ابتسامة ظفر غائمة ، ولكن بليغة ، ترسم على شفتى المرأة .

ـ ياله من مبلغ ! . يا مارتان ..

فانتفض مارتان ، وحاول أن يتخذ موقفا دفاعيا .

ـ كم ستأخذ فى ظنك ؟ . أنا لا اتحدث عن المال .. وانما أتحدث عن الحكم .. سرقة . وقتل . وربما ثبت سبق الاصرار .. ما رايك ؟ . لا أمل فى البراءة بكل تأكيد ، مادام الموضوع لا يتعلق بجريمة عاطفية .. آه ! . فقط لو كانت امرأتك قد أقامت علاقات مع زوجها القديم .. ولكن الأمر يختلف . انه موضوع مال ، ولا شيء غير المال .. عشر سنوات ؟ . عشرين سنة ؟ . هل تريد رأيى ؟ .

لاحظ اننا لا نستطيع ابدا ان نخمن قرار القضاة الشعبيين ..

وهذا لا يمنع من وجود سوابق .. ايه عظيم ! . اننا بوجه عام يمكن أن نقول انهم اذا كانوا يتسامحون فى مآسى الغرام ، فانهم قساة للغاية فى هذه القضايا القائمة على المنفعة ..

كان المرء يظن انه يتكلم لكى يتكلم ، لكى يكسب وقتا .

ـ شيء مفهوم ! . فهم برجوازيون ، تجار .. يعتقدون أنه ليس هناك ما يمكن أن يخشوه على عشيقات لا يملكونهن أو واثقون منهن . ولكنهم يخشون اللصوص كثيرا ! . عشرين سنة ؟ . ايه حسن ! . كلا ! . اننى اميل الى الشنق .

لم يعد مارتان يتحرك . وبمقارنة بينه وبين زوجته ، كان هو الآن أكثر دكانة .

ــ ولكن مدام مارتان ستصبح ثرية .. انها فى الســن التى تعرف فيها كيف تتمتع بالحياة وبالثروة ..

واقترب من النافذة .

ــ ان لم تكن هذه النافذة ... انها حجر العشــرة ... فلن يلبثوا أن يلاحظوا أن المرء من هنا يستطيع أن يرى كل شيء .. كل شيء . هل تسمعنى ؟ .. وهذا خطير ! .. لأن ذلك قد يثير فكرة الاشتراك فى الجريمة .. عندئذ ، يوجد فى القــانون نص صغير يمنع القاتل ، حتى ولو كان مبرأ ، من وراثة الضحية .. ليس فقط القاتل .. وانما شركاؤه أيضا .. انك ترى أهمية وجود هذه النافذة . لم يعد الصمت هو ما يحيط به . كان شيئا آخر أكثر اطباقا ، وأكثر اقلاقا ، يكاد يكون غير حقيقى : انعدام تام لأى أثــر للحياة .

وفجأه وجه سؤالا :

ــ قل لى يا مارتان ، ماذا صنعت بالمسدس ؟.

وسمعت فى الممر انتفاضة حياة : كانت « ماتيلد » العجوز طبعا بوجهها القمرى ، وبطنها الطرى ، تحت المئزر ذى المربعات .

وأتى صوت الحارسة الحاد من الفناء يقول :

ــ مدام مارتان !.. هذا دوفايل !.

وجلس ميجريه فى كرسى اهتز تحته ، ولكنه لم يتحطم فى الحال .

- ١١ -

الرسم المنقوش على الحائط

ـ أجب !.. ماذا فعلت بالمسدس ؟.

وتابع نظرة مارتان ، ووجد أن زوجته التى كانت تصوب نظرها الى السقف ، تحرك أصابها على الحائط .

كان مارتان المسكين يبذل مجهودا خارقا لكى يفهم ما كانت تريد أن تقول له . كان متلهفا . فقد كان ميجريه ينتظر الاجابة .

ـ لقد ..

ماذا يعنى هذا المربع ، أو هذا المنحرف الذى تخططه بأصبعها النحيل ؟.

ـ ماذا ؟.

وهنا أشفق عليه ميجريه حقا . لاشك أن اللحظة كانت مفزعة. لقد كان مارتان يختلج من الجزع .

ـ ألقيته فى « السين » ...

قضى الأمر ! وبينما كان المفتش يخرج المسدس من جيبه ، ويضعه فوق المنضدة ، كانت مدام مارتان تنتصب فوق السرير ، بوجه يقطر حنقا . فقال ميجريه :

ـ لقد بحثت حتى عثرت عليه فى صندوق القمامة ...

ثم خرج صوت المراة المحمومة كالفحيح يقول :

ـ آه ! ... هل فهمت الآن ؟ ... مبسوط ؟ ... لقد أضعت الفرصة ، مرة أخرى ، كما هى عادتك دائما !... ! ولقد فعلت ذلك خصيصا ، خوفا من دخول السجن... ولكنك ستدخله

رغما عن ذلك ! .. لأن السرقة ، أنت التى ارتكبتها ! .. الثلثمائة والستون الف ورقة التى القاها الأستاذ فى نهر السين ...

كانت مرعبة . وكان الناظر يدرك أنها كانت قد تمالك نفسها أكثر من اللازم .. كان اندفاعها عنيفا . وكان هياجها من الهوس بحيث أن كلمات عديدة كانت تمثل أحيانا على شفتيها فى نفس اللحظة ، وكانت تخلط بين الألفاظ ..

كان مارتان مطرقا براسه . لقد انتهى دوره . وكما وبختـه زوجته فقد اخفق بطريقة تبعث على الرثاء .

ـ ... لقد قرر الأستاذ أن يسرق ، ولكنه نسى قفازه فوق المكتب ... ان مظالم مدام مارتان كلها راحت تنهال ، دونما تنظيم .

وسمع ميجريه خلفه صوت الرجل الذليل صاحب المعطف المطاط يقول :

ـ منذ شهور وهى تشير لى الى المكتب من النافذة ، والى كوشيه الذى اعتاد الذهاب الى الاحواض ...

... وكانت تلومنى لأننى انغص عليها حياتها ، ولا أستطيع ان اعول امرأة ... فذهبت ...

ـ هل اخبرتها بأنك ذاهب ؟

ـ لا . ولكنها كانت تعلم .. فقد كان تنظر من النافذة ..

ـ ومن بعيد ، رأيت القفاز الذى نسيه زوجك ، يا مدام مارتان ؟

ـ وكأنه يترك بطاقة زيارة ، علما بأنه كان يريد أن يغيظنى ...

ـ فأخذت مسدسك وذهبت الى هناك ... ورجع كوشيه ، بينما أنت لا تزالين فى المكتب ... فاعتقد أنك أنت السارقة ...

ـ وأراد ان يقبض على ، اجل ! هذا هو ما أراد أن يفعله : وكأنه لم يصبح غنيا بفضلى أنا !... فمن الذى كان يقوم على خدمته ، فى البداية ، عندما كان لا يجنى من المال ما يقيم أوده من خبز بلا زبد ؟... والرجال جميعا متشابهون !... لقد بلغ

به الأمر الى حد لومى على السكنى فى المنـــــزل الذى توجد به مكاتبه ... واتهمنى بمقاسمة ابنى للمال الذى كان يعطيه اياه...

ـ وأطلقت الرصاص ؟

ـ كان قد رفع سماعة التليفون ليستدعى الشرطة !

ـ وتوجهت ناحية صناديق القمامة . وبحجة البحث عن ملعقة صغيرة دسست المسدس وسط القاذورات ... من الذى قابلتــه عندئذ ؟...

فقالت وكأنها تبصق :

ـ العجوز الأبله ، ساكن الطابق الأول ...

ـ ولا احد غيره ؟ أعتقد ان ابنك اتى... فلم يكن لديه نقود...

ـ وبعد ذلك ؟...

ـ لم يكن قد اتى من اجلك انت ، وانما من اجل ابيــه ، أليس كذلك ؟ كل ما هناك أنك لم تستطيعى ان تتركيه يذهب حتى المكتب ، حيث كان من الممكن أن يكتشف الجثة ... كنتما فى الفناء، انتما معا .. فماذا قلت لروجيه ؟

ـ أن ينصرف ... انك لا تستطيع أن تفهم قلب الأم ...

ـ فانصرف ... وعاد زوجك ... ولم يحاول احدكما سؤال الآخر ، مضبوط ...

كان مارتان يفكر في الأوراق الماليــة التى انتهى به الأمر الى القائها في « السين » لأنه فى الواقع رجل طيب مسكين .

ـ رجل طيب مسكين ! كررتها مدام مارتان بحنق غير منتظر . ها ! ها ! وانا ؟ ... أنا التى طالما شقيت ...

ـ ولم يعرف مارتان من الذى قام بالقتل ... ونام... ومضى يوم دون أن تتحدثا عن شيء .. ولكنك فى الليلة التالية ، نهضت لكى تفتشى الملابس التى خلعــــها ... وبحثت عن الأوراق دون جدوى ... وكان هو ينظر اليك ، فسألته ... وهنا تكمن ازمة الحنق التى ســمعتها « ماتيلد » العجوز من وراء الباب .. قد قتلت بلا فائدة ! . فقد القى مارتان الأبله بالنقود ! . بثروة فى

« السين » ، افتقارا الى الشجاعة !... ومرضت بسبب ذلك...
فقد أصابتك الحمى ... وذهب مارتان نفسه ، الذى كان يجهل أنك القاتلة ، ليعلن روجيه بالخبر ...

وفهم روجيه ... فقد رآك فى الفناء ... ومنعتـه أنت من التقدم ... انه يعرفك ... وأعتقد أننى أرتاب فيه ... وتصور أننا سنلقى القبض عليه ، ونوجه اليه التهمة ... وهو لا يستطيع أن يدافع عن نفسه دون أن يتهم أمه ...

وهو قد لا يكون شابا لطيفا ... ولكننا قد نجد فى الحيـاة التى كان يعيشها بعض العذر .. لقد أصابه القرف .. القرف من النساء اللاتى كان ينام لديهن ، ومن العقاقير ، ومن « مونمارتر » حيث كان يذهب ، وفوق ذلك كله ، القرف من مأساة العائلة التى كان يدرك وحده ما يمكن أن تؤدى اليه ...

فألقى بنفسه من النافذة !.

كان مارتان قد استند الى الحائط ، ووجهه بين يديه المثنيتين ، ولكن امرأته كانت تنظر الى المفتش بامعان ، وكأنها لا تنتظر الا اللحظة التى تتدخل عندها فى سرد الأحداث وتهاجم بدورها .

وعندئذ عرض ميجريه الاستشارة التى حررها المحاميان .

ـ وفى زيارتى الأخيرة ، كان الخوف يسيطر على مارتان حتى انه كان سيعترف بسرقته .. ولكنك كنت موجودة .. وكان يلمحك من فرجة الباب .. كنت توجهين اليه اشارات قوية فلزم الصمت ..

ـ أليس ذلك ما فتح عينيه أخيرا ؟ لقـد سألك .. فأجبته بأنك قتلت .

وصرخت بها فى وجهه ! قتلت من أجله ، من أجـل تدارك نسيانه ، من أجل ذلك القفاز الذى تركه فوق المكتب !.. ولأنك قتلت ، فانك لن ترثى شـيئا على الرغم من الوصية !.. آه ! لو كان مارتان رجلا ..

ـ فليرحل الى الخارج .. وسيؤمنون بادانته .. ثم تهـدأ الشرطة ، وبعد ذلك تلحقين به مع الملايين ..

ـ ورحل مارتان المسكين !..

وكاد ميجريه يحطم الرجل الطيب بضربة هائلة فوق كتفه ٠ كان يتكلم بصوت لا رنين له ٠ كانت كلماته تتساقط دونما الحاح منه ٠

ـ ما أكثر ما حدث من أجل هذه النقود ! ٠٠ قتل كوشيه ٠٠ وانتحار روجيه بالقاء نفسه من النافذة ٠٠ وفى آخر دقيقة ندرك أننا لن نحصل عليها ! ٠٠

وفضلت أن تعدى بنفسك حقائب مارتان ٠٠ حقائب مرتبة ترتيبا حسنا ٠٠ ملابس لعدة شهور ٠٠

ـ أسكت !

قالها مارتان متوسلا ٠

وصرخت المجنونة ٠ ففتح ميجريه الباب على حين فجأة ، فكادت ماتيلد العجوز تنكفىء على وجهها ٠

ففرت هاربة ، فزعة من صوت المفتش ، ولأول مرة راحت تغلق بابها حقا وتدير المفتاح فى المتراس ٠

والقى ميجريه بنظرة أخيرة على الحجرة ٠ كان مارتان لا يجرؤ على الحركة ٠ وزوجته فوق السرير ، هزيلة ، وقد برزت عظام كتفيها تحت قميص النوم ، تتابع بعينيها رجل الشرطة ٠

كانت رزينة ، ساكنة حتى ليتساءل الناظر اليها بعين قلقة عما تعد ٠

وتذكر ميجريه بعض النظرات فى أثناء المشهد السابق ، وبعض حركات الشفاه ٠ واستحضر ما جرى ، فى نفس الوقت الذى فعل فيه مارتان ذلك ٠

لم يكن فى استطاعتهما التدخل ٠ فقد حدث هذا خارجا عن ارادتهما ، كحلم مزعج ٠

كانت مدام مارتان هزيلة ، هزيلة ٠ وغدت ملامحها أبعث على الحزن عن ذى قبل ٠

ترى ما الذى تتطلع اليه ، فى أماكن ليس بها الا الأشياء المألوفة فى الحجرة ؟

ما هذا الذى تتابعه باهتمام فى الحجرة ؟

كان جبينها يتغضن • وكان صدغاها يختلجان ».
فصاح مارتان :
ـ اني خائف !
لم يتغير شيء في المسكن • ودخلت عربة صغيرة في الفناء وسمع صوت الحارسة الحاد •
ان الناظر الى مدام مارتان ليظن أنها تبـــذل بمفردها مجهودا جبارا ، لكي تجتاز جبلا لا يمكن الوصول اليه • ومرتان ، رسمت يدها حركة من يبعد شيئا عن وجهه •
وأخيرا ازدردت ريقها ، وابتسمت ابتسامة شخص يبلغ بغيته :
ـ ومع ذلك فستأتون جميعـــا لتسألوني بعض النقــود ••» سأطلب الى موثق عقودي ألا يعطيكم شيئا ••
واختلج مارتان من قدميه حتى رأسه • فقد أدرك أن هذا ليس هذيانا عابرا ، نتج عن الحمى •
لقد فقدت صوابها نهائيا !
ـ لا يمكن أن يحقد أحد عليها . فهي لم تكن أبدا كسواها تماما ، أليس كذلك ؟
قالها مارتان بأسى :
كان ينتظر تأكيد ميجريه •
ـ مسكين يا مارتان ••
كان مارتان يبكي ! وكان يمسك يد زوجته ويحكها في وجهه ، وكانت هي تدفعه عنهـــا • وكانت على شفتيها ابتسامة متعالية محتقرة •
ـ لا أكثر من خمسة فرنكات مرة واحدة •• لقد قاسيت بما فيه الكفاية ، أنا ، من •••
فقال ميجريه :
ـ سأتصل « بسانت ـ آن » ••
ـ هل تعتقد ؟•• هل من الضروري احتجازها ؟••
أهي قوة العادة ؟ لقد ابتأس مارتان لفـــكرة مغادرة مسكنه ، هذا الجو من التأنيب والعراك اليوميين ، وهذه الحياة القـــذرة ،

وهذه المرأة التى تحـاول ، للمرة الأخيرة ، أن تفكر ، لكنها تقنط وتغلب على أمرها ، فترقد وعلى شفتيها ابتسامة عريضة وهى تهذى :

ـ احضروا لى المفتاح ..

وبعد لحظات كان ميجريه يجتاز زحام الشارع ، كرجل غريب . والأمر الذى كان يحدث له نادرا ، أنه شعر بصداع فظيع ، فدخل صيدلية ليبتلع قرصا من الاسبرين .

كان لايرى حوله شـيئا . وكانت ضوضاء المـدينة تختلط بضوضاء أخرى ، بأصوات بشرية على وجه الخصوص ، كانت لاتزال تدوى فى نافوخه .

كانت هناك صورة متسلطة عليه أكثر من غيرها من الصور : صورة مدام مارتان ، وهى تنهض ، وتلتقط ملابس زوجها من الأرض وتبحث فيها عن النقود ! ومارتان ينظر اليها من سريره .

والمرأة توجه اليه نظرة مستفسرة فيقول :

ـ لقد ألقيتها فى السين ..

ومنذ ذلك الحين وهذا الصداع قائم فى رأسها . أو بالأحرى هذا الخلل ! عندما كانت تعيش فى محل حلوانى « سان ـ مو » .

كل ما هناك أن هذا لم يكن يبدو للعيان . فقد كانت فتاة أقرب الى الجمال . ولم يكن أحد ليهتم بشفتيها المفرطتين فى الدقة ..

وتزوجها كوشيه !

ـ ماذا سأصبح لو وقع لك سوء ؟

واضطر ميجريه للانتظار ، لكى يعبر شارع بومارشيه . ودونما سبب راح يفكر فى « نين » .

ـ لن تحصـل على شىء ! . ولا درهم ـ هكذا دمدم ميجريه بصوت خفيض ـ فستبطل الوصـية . ومدام كوشيه الثـانية هى التى ..

ولابد أن العقيد بدأ اجراءاته . كان هذا أمرا طبيعيا . وقـد تحصل مدام كوشيه على كل شىء ! على كل الملايين ..

انها سيدة مرموقة ، تعرف كيف تحافظ على كرامتها ..

وصعد ميجريه فى السلم فى بطء ، ودفع باب شقته بشارع « ريتشارد لونوار » •

– فمن من الذى وصل ؟

كانت مدام ميجريه تضع فوق غطاء المائدة الأبيض أربعة أطقم ، ولمح ميجريه فوق « البوفيه » ابريقا من « القراصية » •

– أختك ؟

لم يكن تخمين ذلك بالأمر العسير ، ما دامت فى كل مرة تأتى فيها من « الزاس » ، كانت تحضر معها ابريقا من الكحول وفواكه وفخذ خنزير مقددا •

– لقد خرجت لتقوم ببعض الجولات مع أندريه ••

زوجها ! شاب طيب يدير مصنعا للطوب •

– يبـــدو عليك الارهاق •• أتعشم ألا تخرج اليوم اطلاقا ، على الأقل ؟

ولم يخرج ميجريه • وفى التاسعة مساء ، كان يلعب مع أخت زوجته وزوجها لعبـة القزم الأصفر • وكانت « القراصية » تعبق جو حجرة الطعام •

وكانت مدام ميجريه تنطلق ضاحكة بين لحظة وأخرى لأنها لم تتوصل بعد الى معرفة أوراق اللعب فكانت تأتى كل ما يتصوره العقل من حماقات •

– هل انت متأكدة انه ليس معك تسعة ؟

– أجل ، معى ••

– اذن ، فلماذا لا تلعبين ؟

كان هذا كله بالنسبة لميجريه ، يمثل حماما ساخنا • فلم يعد يشعر بالصداع • لم يعد يفكر فى مدام مارتان ، التى حملتها احدى عربات الاسعاف فى طريقها الى « سانت – آن » ، بينما كان زوجها ينتحب وحيدا على السلم الخالى •

((تمت))